كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

رؤيا

وقصص أخرى

34

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق



ورحلت ..

(قصة قصيرة)

فجأة ، قررت حبيبتى الرحيل ..

أو بمعنى أدق ، أعلنت عنه ..

فمنذ فترة ، وأنا أشعر بما يعتمل فى أعماقها ، وبما تشتعل به نفسها ..

صحيح أنها واظبت على لقاءاتنا ، ولحظات حبنا ، ولم تخلف موعدًا من مواعيدنا قط ..

ولكن كل هذا افتقر إلى حرارتها المعتادة ، ولهفتها المحبَّبة ، وذلك الحب ، الذى كان يطلّ من عينيها وكلماتها ،

فيرقص له قلبى ، وينتعش به كيانى ، ويتجدَّد له شباب كل خلية فى جسدى ..

كل هذا اختفى ، منذ فترة ما ، قبل أن تعلن رغبتها فى الرحيل ..

حتى وهى تعلن هذا ، كانت جميلة ، رقيقة ناعمة ، حانية ، إلى حد انفطر معه قلبى ، وذاب له وجدانى ..

لقد تحمَّلت منى ومن أجلى طويلاً ..

وكثيرًا ..

تحمَّلت عصبيتى ، وتعنتى ، وثورانى فى أثناء مناقشاتنا ، وإصرارى الدائم على رأيى ، ونوبات المرض التى تعاودنى باستمرار ..

تحمَّلت كل هذا بصبر ، دام عدة سنوات ..

لأنها أحبتنى ..

كان حبها عظيمًا ، رائعًا ، عميقًا ، على نحو لم أتخيَّل حتى وجوده ، منذ وعت عيناى الدنيا ..

وبكل ذرة فى كيانى ، أحببتها ..

بكل نبضة فى قلبى عشقتها ..

بكل نفس يردده صدرى أدمنتها ..

ولكننى لم أمنحها قط مثلما منحتنى ..

لم أمنحها الحب الكافى ، أو الدفء المطلق ، أو الشعور بالأمن والأمان ، الذى تنشده كل أنثى ..

لم أمنحها أبدًا عُشر ما منحتنى إياه ..

كانت تتمنى أن يربطنا إطار شرعى دائم ..

وكنت أعلم أنها ستصبح أعظم زوجة فى الوجود ..

أعظم حبيبة ، وعشيقة ، وأم ..

ولكن أسبابًا شتى حالت دون إتمام هذا ..

دون تحقيق حلمى وحلمها ..

ولقد بذلت قصارى جهدى ؛ للتغلُّب على كل العقبات ، وتجاوز كل المصاعب ..

ولم يسمح لى القدر بهذا ..

كنت أقاتل ، وأقاتل ، وأقاتل ..

والأمور تزداد صعوبة وتعقيدًا أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وصبرت حبيبتى على كل هذا ..

وصبرت ..

وصبرت ..

لم يكل حبها وحنانها وعشقها قط ..

لم تتوقَّف لحظة عن منحى كل ما يمكنها ، حتى ترى نظرة سعادة واحدة فى عينىَّ ..

ومن المؤكَّد أنها لم تجد صدى لكل هذا فى نفسى ..

أو أنها قد تصوَّرت هذا ..

المهم أن حبها قد فتر فجأة ..

لعلَّها ملَّت ..

أو يئست ..

أو غضبت ..

المهم أنها لم تعد تحتمل الاستمرار ..

ولم تفصح عن هذا قط ، إلا عندما سألتها أنا ..

لحظتها بكت ، ودفنت رأسها فى صدرى ، وأعلنتنى أنها لم تعد تستطيع الاستمرار ..

لم تعد قادرة على منحى حبها ، بنفس القدر السابق ..

لم يعد باستطاعتها أن تصبر ..

أو تحتمل ..

أو تنتظر ..

لم يعد باستطاعتها أن تحيا على هذا النحو ، الذى يخالف طبيعة كل أنثى ، تبحث عن الأمان ، والاستقرار ، فى كنف من تحب ..

وبقيت عيناى جافتين ، على الرغم من الدموع الغزيرة ، التى انهمرت فى قلبى ، وأنا استمع إليها ، وأتطلَّع إلى وجهها ، الذى عشقته بكل كيانى ، منذ أوَّل لحظة وقع فيها بصرى عليه ..

وتركتها تفرغ كل ما لديها ، بكلماتها ، ودموعها ..

ولأوَّل مرة فى حياتى ، شعرت بعجز ومرارة بلا حدود ..

فما منعنى من زواجها ما زال قائمًا ..

وحبها ما زال يحتلَّ وجودى كله ..

كانت لحظات لا يمكن نسيانها قط ..

أكثر لحظات حياتى ألمًا ، وعذابًا ، ومرارة ..

فأنا لم أحبها فحسب ، وإنما عشقتها ، وذبت فى هواها حتى النخاع ..

ولكننى لم أستطع أن أقدِّم لها ما يعيدها إلىَّ ..

ربما لأننى شعرت بأنها لم تعد تريدنى كما كانت ..

فقط كانت ترغب فى الابتعاد ..

والرحيل ..

حبيبتى لم تعد تحتمل متاعبى ..

أو تحتملنى ..

ورحلت ..

رحلت حبيبتى الوحيدة ، وتركتنى خلفها غير قادر على النطق ، وعيناى تدوران فى كل مكان حولى ..

كل شبر كان يذكرنى بها ..

كنت أراها فى كل ركن ..

أسمع ضحكاتها وكلماتها فى كل مكان ..

أشم عطرها الرقيق فى كل لحظة ..

وجهها لا يفارق خيالى قط ..

وقلبى لا يمكن أن ينساها أبدًا ..

لا يمكننى أن أتصوَّر الحياة بدونها ..

كم أشعر بالحزن لغيابها ..

كم أشعر بالوحدة دونها ..

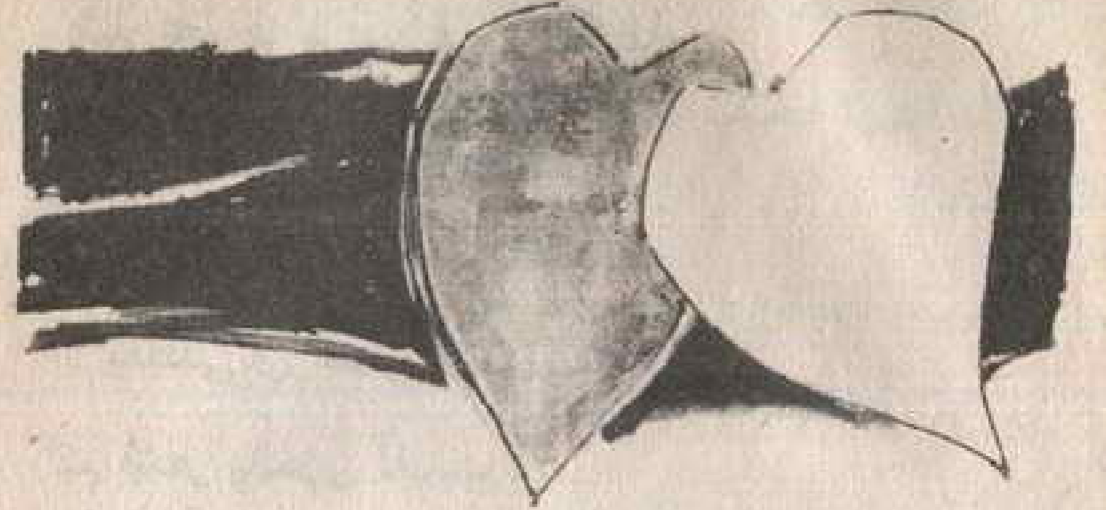
وكم أجاهد وأقاتل ، بكل ما تبقى فى كيانى من قوة وإرادة وإصرار ؛ حتى أتغلَّب على تلك الظروف العسيرة ، التى حالت بينى وبينها ..

ساعدنى يا رب على تجاوز المحنة ..

ساعدنى على احتمال فراقها ، حتى يعود إلىَّ حبها ، أو ترحل .. روحى .

* * *

(تمت)



قلبى .. وقلبه ..

(قصة قصيرة)

« صباح الخير يا آنسة (مروة) .. » ..

لم تكد (مروة) تسمع تلك العبارة الصباحية المعتادة ، وهى تتجه نحو مدرَّج المحاضرات الرئيسى ، حتى زفرت فى شىء من التوتر ، وغمغمت ، دون أن تلتفت إلى صاحبها :

ـ صباح الخير يا أستاذ (أحمد) .

ضحكت زميلتها (غادة) ، ولكزتها بمرفقها خفية ، وهى تهمس فى أذنها :

ـ أستاذ (أحمد) ؟! إنك تتحدثين إليه بأسلوب رسمى جداً .

قالت فى حدة هامسة :

ـ هو أيضًا يتعامل معى بأسلوب رسمى جداً .. إنه الوحيد من زملاء الصف ، الذى يخاطبنى بلقب الآنسة (مروة) هذا .

همست (غادة) :

ـ إنه يحترمك جدًّا فى الواقع .

توقَّفت (مروة) بغتة ، وارتفع صوتها دون أن تدرى ، وهى تلتفت إلى (غادة) هاتفة فى استنكار :

ـ يحترمنى ؟!

التفت كل طلاَّب المدرَّج إليها فى دهشة وتساؤل ، واحمرَّ وجه (غادة) خجلاً ، وهى تهمس فى توتر :

ـ (مروة) .. تمالكى أعصابك .

شعرت (مروة) بالحنق ؛ لأن أعصابها قد أفلتت منها على هذا النحو السافر ، وانعقد حاجباها فى غضب حقيقى ، عندما رأت (أحمد) يتطلَّع إليها فى قلق حائر ، فغمغمت فى توتر شديد :

ـ أريد أن ألطمه على وجهه .

قالتها ، واتخذت مقعدها داخل المدرج ، وحافظت على انعقادة حاجبيها الغاضبة ، حتى انتهت المحاضرة ، فاندفعت تسابق زملاءها للخروج ، عندما فوجئت به أمامها ، يسألها بكل قلق الدنيا :

ـ آنسة (مروة) .. أأنت بخير ؟!

وجدت نفسها تهتف فى وجهه بحدة :

ـ اتركنى وشأنى ، وسأكون بخير حال .

تراجع بدهشة مذعورة ، وهو يحدّق فى وجهها بشىء من الارتياع ، ضاعف من حنقها ، فاندفعت مبتعدة عنه ، وهى تهمهم بكلمات ساخطة ، فلحقت بها زميلتها (غادة) ، وهتفت لاهثة :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟! لقد أحرجته أمام الجميع .

قالت (مروة) فى حدة :

ـ إنه يستحق هذا .

هتفت بها (غادة) :

ـ لماذا ؟!

توقّفت دفعة واحدة ، وازداد انعقاد حاجبيها ، وعقلها يبحث عن الجواب فى أعماقها ..

نعم .. لماذا ؟!

لماذا تضيق باهتمام (أحمد) بها إلى هذا الحد ؟!

لماذا تحنقها وتثير سخطها ملاحقته لها ؟!

إنه شاب شديد التهذيب .. ما من شك فى هذا ..

شاب جاد ، رصين ، عاقل ، هادئ ، متزن ..

وربما لهذا تضيق به ..

إنه يبدو بالنسبة لها ، أشبه بصورة من منتصف القرن العشرين ، تقحم نفسها عنوة ، فى عالم القرن الحادى والعشرين ..

لا يشبه أيًّا من زملائها الآخرين على الإطلاق ..

« إن شخصيته سخيفة » ..

هتفت بالعبارة فى حنق شديد ، جعل (غادة) تتطلّع إليها فى دهشة ، قائلة :

ـ إلى هذا الحد ؟!

جلست على أحد مقاعد الفناء ، وقالت فى عصبية :

ـ إنه شاب مختلف .

ابتسمت (غادة) ، وهى تجلس إلى جوارها ، قائلة :

ـ (مروة) .. ربما لا تميلين إلى (أحمد) ، ولكن لا داعى للتعنت بشأنه .

لوَّحت (مروة) بيدها ، قائلة فى حنق :

ـ هل رأيت ما يرتديه ؟! قميص أبيض وسروال أسود .. تمامًا كأبطال أفلام الخمسينات .. حتى تصفيفة شعره تقليدية جدًا .. إنه لا يستمع إلى الأغنيات الحديثة ، ولا يشارك فى حفلات الكلية ، و ...

قاطعتها (غادة) ضاحكة :

ـ أهذا سبب ضيقك منه ؟!

هتفت ، وقدا أحنقتها ضحكة صديقتها أكثر :

ـ ألا تكفيك كل هذه الأسباب ؟!

هزَّت (غادة) رأسها نفيًا فى بطء ، وقالت وهى تنهض :

ـ كُلا .. لا تكفينى .

عقدت (مروة) ساعديها أمام صدرها ، هاتفة :

ـ هذا شأنك .

تنهَّدت (غادة) ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

وصمتت لحظة ، وكأنها تبحث عما تقول ، قبل أن تندفع قائلة :

ـ الواقع أن كل ما يضايقك منه مجرَّد تفاهات .

صدمتها الكلمة ، فغمغمت ذاهلة :

ـ تفاهات ؟!

أجابتها (غادة) فى حزم :

ـ نعم .. تفاهات .. فموضة الثياب ، وتصفيفة الشعر ، كلها أمور سخيفة ، لا يبالى بها إلا فارغ العقل .

قالت (مروة) فى حدة :

ـ الاهتمام بالمظهر ليس فراغ عقل .

أجابتها فى حزم أكبر :

ـ بالتأكيد ، عندما لا يكون هو الاهتمام الرئيسى .

حدَّقت فيها (مروة) لحظة ، قبل أن تبتسم فى خبث ، قائلة :

ـ آه .. فهمت .

سألتها (غادة) فى عصبية :

ـ فهمت ماذا ؟!

أجابتها (مروة) بلهجة هجومية :

ـ أنت تحبين (أحمد) .

كانت تتوقَّع أن يصدم هجومها (غادة) ، وأن تسارع هذه الأخيرة بإنكار الأمر واستنكاره ، لذا فقد فاجأها أن اعتدلت (غادة) ، ومسحت شعرها بيدها ، فى حركة عصبية ، قبل أن تجيب فى حزم :

ـ نعم .. أنا أحبه .

حَدَّقت (مروة) فيها مرة أخرى ، قبل أن تقول فى لهجة حادة ، حملت نبرة غيرة واضحة :

ـ ولِمَ لا تخبرينه بهذا ؟!

أجابتها (غادة) فى أسى :

ـ لأنه يحبك أنت .

ردَّدت (مروة) ، وكأنما باغتها الأمر :

ـ يحبنى أنا ؟!

أجابتها (غادة) ، بكل مرارة الدنيا ، وهى تمسح شعرها بيدها مرة أخرى :

ـ وماذا كنت تظنين ؟!

نطقتها ، وانصرفت فى صمت ، تاركة (مروة) خلفها ، وعقلها يموج بلجة من الأفكار ..

(غادة) تحبه ..

نعم .. هذا هو التفسير الوحيد لحماستها الشديدة له ، واهتمامها البالغ به ..

ولكنه لا يستحق ..

من المؤكَّد أنه لا يستحق ..

إنه منفصل عن زمنه ..

هذا رأيها فيه ، ولن يتغيَّر أبدًا ..

لم يمض وقت طويل ، حتى طرحت الأمر كله عن رأسها ، وأسرعت تندمج مع شلتها المعتادة ، وتتبادل مع شبانها وفتياتها أحاديثهم التقليدية ، عن الموضة ، والأغنيات الجديدة ، وأحدث السيارات ونغمات الهواتف المحمولة ..

ولم يشغلها الأمر فى الأيام التالية أيضًا ..

كل ما لاحظته ، هو أن (أحمد) لم يعد يقترب منها ، أو يتحدَّث إليها ، أو حتى يلقى عليها تحية الصباح كالمعتاد ..

ولقد أراحها هذا كثيرًا ..

ومع مرور الوقت ، لاحظت تقاربه مع (غادة) ، وكثرة حديثهما ، وضحكاتهما ، التى لم تلبث أن تحولَّت إلى همسات باسمة ، فى فترات ما بين المحاضرات ..

ولقد ظلّ (أحمد) كما هو .. رصينًا ، هادئًا ، وقورًا ..

ومع نهاية سنوات الكلية ، تحولَّت علاقة (أحمد) و(غادة) إلى رباط رسمى وثيق ، فى حفل هادئ بسيط ، سخرت منه (مروة) كثيرًا ، ووصفته بأنه أشبه بجلسة توقيع معاهدة دبلوماسية ..

ثم تفرَّقت بهم السبل ..

أربع سنوات كاملة ، بعد التخرُّج ، لم تلتق خلالها (مروة) بزميلتها (غادة) أو خطيبها (أحمد) مرة واحدة ..

ولم تحاول حتى معرفة أخبارهما ..

وخلال تلك السنوات الأربع ، التقت بـ (وائل) ..

شاب وسيم ، بالغ الأناقة دومًا ، يمتلك سيارة رياضية حمراء مبهرة ، ويحمل دومًا أغلى الهواتف المحمولة وأحدثها ..

ومع (وائل) قضت (مروة) أحلى أيامها ، وأفضل سنواتها ، وأسعد لحظاتها ..

إلا أنه لم يتقدَّم لخطبتها أبدًا ..

بل ولم يحاول حتى أن يفعل ..

فى البداية ، كانت كرامتها تمنعها من مفاتحته بالأمر ، إلا أن شعورها بمضى العمر ، جعلها تتجاوز حاجز الكرامة هذا ، وتسأله مباشرة :

- (وائل) .. متى ستتقدَّم لخطبتى ؟!

استدار إليها بعينيه العابثتين المستهترتين ، وهو يقول :

ـ خطبتك ؟! من وضع فى رأسك هذه الفكرة المضحكة ؟!

صعقها جوابه ، حتى إنها قاومت دموعها فى صعوبة ، وسيطرت على مشاعرها وصوتها بصعوبة ، وهى تقول مستنكرة ، متألِّمة :

ـ خطبتك لى فكرة مضحكة ؟!

لوَّح بيده ، قائلاً فى سخرية :

ـ لك أو لغيرك .. فكرة الخطبة والارتباط الأبدى فى حد ذاتها فكرة مضحكة ، وسخيفة أيضًا .. الزواج نفسه نظام فاشل ، يحرم الإنسان من حريته وانطلاقه ، ويسجنه داخل أسوار عالية ، من الالتزامات والمسئوليات ، والمعوقات .

بدت لها مقاومة دموعها عسيرة ، وهى تقول بصوت مبحوح ، حاولت أن تحافظ فيه على بقايا كرامتها الجريحة :

ـ إنها سنة الحياة .

هتف فى سخرية مستنكرة :

ـ أية سنة ، وأية حياة ؟!

ثم مال نحوها ، وبدت عيناه عابثتين مستهترتين كعهدهما ، وهو يقول :

ـ الحياة نعيشها مرة واحدة ؛ لنستمتع ونفرح ونمرح ، وليس لنخنق أنفسنا بالزواج والارتباط .

وجدت نفسها تبذل جهدًا عنيفًا هذه المرة ، لتغمغم فى مرارة ، وبصوت بلغ انخفاضه حد الهمس ، خشية أن تتفجَّر معه مشاعرها ودموعها :

ـ لماذا كان ارتباطنا إذن ؟!

تراجع هاتفًا فى حماسة :

ـ لنمرح ، ونلعب ، ونحب ، ونستمتع .

ثم غمز بعينه ، مضيفًا فى سخرية :

ـ وليس لنتزوَّج .

حاولت أن تعترض على منطقه المقلوب هذا ..

حاولت أن تقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن دموعها ، ونزيف كرامتها وعواطفها ، وتلك الغصة المؤلمة فى حلقها ، كلها منعتها من النطق بحرف واحد ..

فقط انسلخت من جواره ، وأسرعت الخطى مبتعدة ، ودموعها ، التى طالت حبستها ، تتفجَّر لتغرق وجهها كله ..

وفى منزلها بكت ..

وبكت ..

وبكت ..

يالها من تجربة مريرة !

تجربةَ مزَّقت مشاعرها ، وجندلت كرامتها ، وسحقت كبرياءها ، بلا رحمة أو هوادة ..

سنوات من عمرها أضاعتها مع تافه مستهتر ، عديم القيم ، لا يبالى بالعواطف أو يحترم المشاعر ..

هى منحته حبها ، وهو لم يمنحها سوى العذاب ، والخزى ، والهوان ..

كل شىء فى أعماقها تمزَّق فى عنف ، وتوتر ، وضاع ، وغرق فى بئر من الضياع والمرارة ..

كل شىء ..

ولأيام وأيام لم تستطع ابتلاع حزنها ..

لأيام وأيام لم يندمل أبدًا جرحها ..

ثم فجأة ، وجدت نفسها تتذكَّر (أحمد) ..

تتذكَّره برجولته ، ورصانته ، ووقاره الهادئ ، و ...

وحبه ..

كم تحتاج اليوم إلى قلب كقلبه ..

إلى رجل مثله ..

لقد كانت (غادة) على حق ..

مثله فقط ، يمكن أن يمنح الفتاه تلك الشعور بأنوثتها ..

ودون وعى منها ، راح (أحمد) يحتلّ ، فى كل دقيقة تمضى ، مساحة أكبر من عقلها ..

وقلبها ..

ومشاعرها ..

ولم يمض يومان ، حتى ضبطت نفسها تسترجع كل لحظة معه ..

حديثه الهادئ ..

حبه الرصين ..

مشاعره الغضة ..

وتحية الصباح ، التى كان يحرص على إلقائهـا عليهـا ، والتى كانت تضجرها وتحنقها ..

كم تمنت اليوم أن تسمعها منه ..

كم تمنت أن تراه ، ولو لحظة واحدة ..

ولكن فجأة ، اقتحمت ذاكرتها صورة ، انخلع لها قلبها ..

صورة تلك المشاعر ، التى ارتسمت على وجهه ، عندما صاحت فيه فى الكلية ..



وعادت تبكى ..

وتبكى ..

وتبكى ..

وفى الصباح التالى ، قرَّرت أن تستعيد (أحمد) ..

وبأى ثمن ..

حتى ولو كان الثمن هو (غادة) نفسها ..

إنه يحبها هى ..

(غادة) اعترفت لها بهذا ..

وستعترف به مرة أخرى ..

إنها واثقة من هذا ..

الرجل عندما يحب ، ينسى كل شىء آخر ..

ما عدا من يحب ..

وبكل حماستها ، ارتدت أفضل ثيابها ، وتـأنَّقت ، ووضعت زينتها ، وأفضل عطورها ، ثم ذهبت إليه مسلحة بفتنتها وإغراءاتها ..

كانت تعلم أنه قد تعيَّن معيدًا فى كليتها ، وربما هذا هو الأمر الوحيد ، الذى تعلمه عنه .. ولقد فوجئ (أحمد) بمرآها بحق ..

فوجئ بها تدلف إلى حجرة مكتبه ، ساحرة ، فاتنة ، أكثر جمالاً ألف مرة ، مما كانت عليه فى أيام الكلية ..

ولقد قرأت هى الانبهار فى عينيه ، وامتقاعه ، وارتجافة أصابعه وهو يصافحها ، وارتعادة صوته ، وهو يدعوها للجلوس ..

وأدركت أنها قد انتصرت ..

صحيح أنه قد ظلّ رصينًا ، هادئًا ، وقورًا كعهدها به ..

إلا أنها كانت واثقة من انتصارها الساحق ، فى معركة استعادته ..

وكم أحبَّت وقاره ، ورصانته ، وهدوءه هذه المرة ..

كم عشقت فيه كل هذا ..

لقد بدا لها رجلاً ناضجًا ، واثقًا ، قويًا ، على نحو داعب كل ذرة من كيانها وأنوثتها ، بأسلوب لم تعهده فى نفسها قط ..

وفى طريق عودتها إلى منزلها، كان قلبها يرقص طربًا بين ضلوعها ..

من الواضح أنها تحبه منذ البداية ..

بل تعشقه ..

ربما لم تدرك هذا قديمًا ، عندما كان ذهنها منشغلا بتفاهات ، لم تعد تجذب أدنى اهتمام منها الآن ..

ولكنها نضجت ..

وارتطمت بالحياة ..

وتحطَّمت على صخرة الواقع ..

والآن ، تراه بصورة مختلفة تمامًا ، و ...

قاطعها رنين جرس الباب ، فخفق معه قلبها ، واندفعت بتلقائية نحو الباب ، وفتحته ، و ...

وتجمَّدت كل مشاعرها دفعة واحدة ، وهى تحدِّق فى تلك الفتاة ، التى تقف أمامها ..

(غادة) ..

كانت تتطلّع إليها بابتسامة هادئة ، واثقة ، وهى تقول :

ـ أهلاً يا (مروة) .. تصوّرت أنك قد نسيتنا .

اختنق صوتها فى حلقها بضع لحظات ، قبل أن تغمغم بصوت متحشرج :

ـ (غادة) ؟! ما الذى ..

قبل أن تتم عبارتها ، أزاحتها (غادة) جانبًا ، وهى تدلف إلى المكان ، قائلة :

ـ ألن تدعيننى للدخول ؟!

شعرت بتوتر لم يسبق له مثيل ، يسرى فى كيانها كله ، فاستدارت إلى حيث جلست (غادة) ، وقالت فى عصبية :

ـ ما سر هذه الزيارة المفاجئة ، بعد كل هذه السنوات ؟!

رفعت (غادة) أحد حاجبيها ، وقالت :

ـ عجبًا ! إنه نفس السؤال ، الذى جئت أسألك إياه .

غمغمت (مروة) فى دهشة :

ـ نفس السؤال ؟!

استدارت (غادة) بجسدها كله إليها ، قائلة فى صرامة :

ـ نعم يا (مروة) نفس السؤال .

ثم نهضت ، مستطردة فى حزم أكثر :

ـ (أحمد) أخبرنى بكل شىء .

ارتجفت كل ذرة فى كيان (مروة) ، وهى تردّد :

ـ (أحمد) ؟!!

أومأت (غادة) برأسها إيجابًا ، وهى تقول :

ـ نعم يا (مروة) .. (أحمد) الذى حاولت أن ترمى عليه شباكك اليوم بعد أن تخلّى عنك (وائل) .

فى حالتها الطبيعية ، كانت (مروة) ستثور ، وتغضب ، وتحتدّ ، ولكن العجيب أنها ، فى هذه اللحظة ، لم تنبس ببنت شفة ، وهى تحدّق فى وجه (غادة) ، التى تابعت :

ـ تصرّف غير شريف يا (مروة) .. وغير منطقى أيضًا .. صحيح أن (أحمد) كان غارقًا فى حبك فيما مضى ، ولم يكن يشعر حتى بوجودى ، ولكن أنت أهديته إلىّ ، بغرورك ، وغطرستك ، وسخافتك ، وقصر نظرك ..

انتزعت (مروة) نفسها من حالتها هذه ، وهتفت فى حدة :

ـ آه .. تعترفين إذن أنه حبيبى أنا .

ابتسمت (غادة) ، وهى تهزّ نفسها ، قائلة :

ـ (أحمد) لم يكن أبدًا حبيبك يا (مروة) .. ربما كنت أنت حبيبته ذات يوم ، ولكنه حبيبى أنا منذ الأزل ..

توقّفت ، والتقطت نفسًا عميقًا ، لتسيطر على مشاعرها ، قبل أن تتابع :

ـ لقد أحبك أنت ، وتمزّق قلبى لهذا ؛ لأننى أحبه وأحبك .. وقرّرت أن أضحى بقلبى من أجلكما .. وكنت صادقة تمامًا فى هذا ، ولكنك كنت جافة قاسية وقحة مع (أحمد) ، حتى إننى لم أحتمل ما يصيبه على يديك .

والتقطت نفسًا عميقًا آخر ، ثم رفعت رأسها فى اعتداد ، مكملة :

ـ وقرّرت أن أمنحه حبى .. وحياتى كلها .

قالت (مروة) فى غضب :

ـ تقصدين أنك قرّرت سرقته منى .

هزّت (غادة) رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ لا أحد يسرق الحب يا (مروة) .. الحب مثل زهرة جميلة يانعة .. إما أن نرويها بعواطفنا ومشاعرنا ، أو تذبل وتموت ، وينمحى عطرها من قلوبنا .

ثم مالت نحوها ، متابعة فى خفوت :

ـ أنت أهملت زهرة حبك يا (مروة) ، ومحوت عطرها كله ، أما أنا فقد رويتها بكل كيانى ، وكل عواطفى ، ومشاعرى ، وحبى .. رويتها حتى أزهرت ، وفاحت بعطر آخر ، لايمكن أن ينمحى منها أبدًا .. عطر أقوى من كل عطر آخر فى الوجود ، وأبقى من كل زهور الأرض .

واعتدلت ، وعيناها تتألقان ، مستطردة فى حزم وثقة :

ـ عطر دائم .. يربط بين قلبى .. وقلبه .. قلب (أحمد) .

قالتها ، واتجهت وحدها إلى الباب ، وغادرت المنزل كله بمنتهى الحزم والحسم ، تاركة (مروة) خلفها كزهرة ذابلة ، فقدت كل عطرها ..

زهرة أدركت ، فى رمقها الأخير أنها قد خسرت كل ماتمناه قلبها ..

خسرت قلبه ..

إلى الأبد .

* * *

(تمت بحمد الله)

مهمة رسمية

ملخص ما سبق نشره :

لأوّل مرة ، لجأ اللواء (حلمى) إلى (نديم فوزى) ؛ ليعاونه فى قضية غسيل أموال قذرة ، يقوم بها رجل الأعمال (رشاد السلباوى) ، صاحب النفوذ القوى ..

اصطدم (نديم) بـ (رشاد) ومحاميه الداهية (إدوارد) ، الذى يعلم حقيقة كونه (العقرب) وأرسل خلفه رجله (جابر) ..

وأفلت (نديم) من المراقبة ، ثم اقتحم مخازن (رشاد) ، ليعثر فيها على شحنة من الموسوعات الفاخرة ، ولتباغته الشرطة الرسمية هناك ، بقيادة خصمه اللدود العقيد (مجدى) .. وبمعاونة (غادة) ، نجا (العقرب) من الفخ ، بعد أن زرع الشك فى نفس (مجدى) ، تجاه (السلباوى) ومحاميه ، وتجاه شحنة الموسوعات الفاخرة ..

ولكن المحامى لجأ إلى إشعال النيران فى المخازن ، لتلتهم الشحنة كلها ، وفى الوقت ذاته ، أرسل بعض زبانيته ، لاستعادة الكتاب ، الذى حصل عليه (نديم) ..

وكانت مواجهة عنيفة فى مكتب (نديم) ..

مواجهة انتهت بفوز (نديم) و(غادة) وبكشف مدهش ، عثرا عليه فى كعب أحد أجزاء الموسوعة الفاخرة ..

كشف غير متوقَّع .. على الإطلاق .

٧ ـ اغتيـال ..

فرك (رشاد السلباوى) كفيه ، بكل توتر الدنيا ، وهو يتحرَّك فى مكتبه بعصبية بالغة ، قائلاً :

ـ إذن فقد تركتم الكتاب هناك ، على الرغم من كل ما حدث .

أجابه (إدوارد) ، فى هدوء صارم :

ـ لم يكن هناك حل آخر .

لوَّح (رشاد) بذراعه ، هاتفًا :

ـ إنها كارثة .. كارثة بكل المقاييس .. لو كشفوا الموجود فى كعب الكتاب ، سنـ ...

قاطعه (إدوارد) فى صرامة قاسية :

ـ لا تقلق نفسك بهذا .

صاح (رشاد) فى ثورة :

ـ لا أقلق نفسى بهـذا ؟! أى قـول أحمق سخيف هـذا يا (إدوارد) !! كلانا يعلم أن الشحنة واردة باسمى واسم شركاتى ، وأن المسئولية المباشرة ..

هبَّ (إدوارد) من مقعده بحركة حادة ، قائلاً فى صرامة :

- أية مسئولية ؟! أنت تعلم أن رجالنا يتولون الأمر كله منذ البداية ، وأننى هنا ، بكل خبراتى وبراعتى القانونية ، لحمايتك ، وتأمينك ، وضمان عدم وجود أية ثغرة ، يمكن أن ينفذ منها ، القانون المصرى إليك .

ثم مال نحوه ، وبدت ملامحه شيطانية شرسة ، وهو يضيف ، متطلعًا إلى عينى (رشاد) مباشرة :

- إنها مليارات الدولارات ، ولن نتركها حتمًا دون حماية قوية .

غمغم (رشاد) بصوت مرتجف :

- وماذا لو كشفوا الـ ...

قاطعه (إدوارد) بشراسة أكثر :

- لن يكشفوا شيئًا .. لقد انتزعنا كل ما نريده ، من تلك الموسوعات السخيفة ، ثم أحرقناها كلها .

ازدرد (رشاد) لعابه فى صعوبة ، وغمغم :

- هناك نسخة لدى ذلك (العقرب) .

تألَّقت عينا (إدوارد) ، وتراجع قائلاً بلهجة مخيفة :

- هذا لا يهم أيضًا ، فبعد دقائق قليلة ، لن يكون هناك وجود لذلك (العقرب) ، أو للمحامى (نديم فوزى) ..

حدَّق (رشاد) فى وجهه ، متمتمًا :

- هل .. هل ..

تابع (إدوارد) ، وهو يشعل سيجارًا ضخمًا ، وكأنما لم يسمعه :

- فقد استوردت له مبيدًا إيطاليًا خاصًا ، يجيد عمله بمهارة المحترفين .

ردَّد (رشاد) ، فى حذر متوتر :

- مبيد ؟!

تألَّقت عينا (إدوارد) ، وهو يقول :

- نعم .. مبيد يدعى (ماريو) .

قالها ، ثم أطلق ضحكة طويلة ممطوطة ..

ضحكة شيطان ..

حقيقى ..

* * *

حفرت الدهشة خطوطها العريضة ، على وجه (غادة) ، وهى تحدّق فى تلك القطع المتلألئة الصغيرة ، التى تناثرت من كعب الكتاب الأحمر الفاخر ، قبل أن تهتف :

ـ ماس ؟!

أجابها (نديم) فى انفعال ، وهو يلتقط الماسات فى حرص :

ـ نعم يا عزيزتى .. هذا ماتخفيه كعوب شحنة الموسوعات الفاخرة .. الماس .. الماس الثمين .

هتفت بدهشة أكبر :

ـ ولكن كعب هذا الكتاب وحده يحوى ست ماسات ، ولو افترضنا أن هذا هو متوسِّط محتوى كل نسخة ، من شحنة الموسوعات ، فنحن أمام ..

قاطعها مكملاً بنفس الانفعال :

ـ مليارات الدولارات يا (غادة) ..

ثم اعتدل ، وتألَّقت عيناه بشدة ، وهو يضيف :

ـ من الواضح أننا أمام أضخم عملية غسيل أموال قذرة ، فى العالم كله .

ردَّدت مبهورة :

ـ مليارات الدولارات ؟! يا إلهى !!

ثم أمسكت ذراعه فى قوة ، مستطردة :

ـ (نديم) .. لابد أن نبلغ اللواء (حلمى) .. فورًا .

التقى حاجباه ، وهو يقول فى حزم :

ـ سنبلغه بالتأكيد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف بصرامة أكثر :

ـ ولكن ليس الآن .

سألته فى دهشة عصبية :

ـ ولِمَ لا ؟!

أجابها ، وهو يضع الماسات فى علبة صغيرة ، دسَّها فى جيبه :

ـ إنهم يدركون أننا نستطيع كشف أمرهم ، ولو بالمصادفة البحتة ، كما حدث الآن ، ومن المؤكد أن حريق المخازن مجرَّد خطوة فى خطة واسعة ، تهدف إلى محو كل أثر لعملياتهم ، ولو أبلغنا اللواء (حلمى) الآن ، فلن يجد دليلاً واحدًا ، يمكنه إدانة فرد واحد منهم به ..

قالت فى إصرار :

ـ ولكن من الضرورى أن يعرف .

شرد ببصره بضع لحظات ، ثم أجابها فى حسم :

ـ اللواء (حلمى) رجل شرطة ، حتى ولو تعامل بمرونة فى هذه القضية ، فهو لن يخفى أمرًا على القيادات العليا ، التى ستتحرك حتمًا فى سرعة ، وربما أفسد تحركها الأمر كله ، وبخاصة مع ثعلب شرس مثل (إدوارد) .

سألته فى عناد :

ـ وماذا لو أخبرناه ، وطلبنا منه إخفاء الأمر ، عن القيادات العليا ؟!

هَزّ كتفيه ، وأجاب بنفس البصر الشارد :

ـ ولماذا نضغط على مشاعره وأعصابه دون مبررٍ ؟!

هتفت :

ـ ليمد لنا يد العون على الأقل .

انتزعته عبارتها الأخيرة من شروده ، وجعلته يلتفت إليها ، قائلاً فى صرامة :

ـ خطأ .

تراجعت بدهشة ، فاستطرد فى صرامة :

ـ فى عملية ضخمة كهذه ، لا ينبغى قط أن تنتشر الأخبار ، أو أن تبلغ فردًا واحدًا ، يزيد عن الحد الأدنى المحتّم للقيام بها ؛ فلا يمكنك قط ضمان عدم وجود خائن ما بين الصفوف .

هتفت مستنكرة فى انزعاج :

ـ صفوف الشرطة ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ الشرطة ليست كلها جنود وضباط .. ثم إن العاملين فيها مجرَّد بشر ، وليسوا ملائكة ، وغسيل مليارات الدولارات ، يستلزم إنفاق الملايين ، لتأمين العملية ، وربما ضعفت نفس البعض ، أمام إغراء تلك الأرقام الهائلة ، فتحولّ إلى عين للمجرمين ، فى قلب جهاز الشرطة .

بدا عليها الذعر ، فاستدرك بسرعة :

ـ مجرَّد احتمال .

غمغمت فى عصبية :

ـ يفزعنى مجرَّد التفكير فيه .

قال فى حزم :

ـ لاينبغى إهمال أية احتمالات ، فى عملية كهذه .

تطلَّعت إليه لحظة فى صمت ، ثم لوَّحت بذراعيها فى توتر ، متسائلة :

ـ ما الذى سنفعله إذن ؟!

عاد (نديم) إلى شروده بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ هذه الخطوة تحتاج إلى (العقرب) .

سألته فى توتر :

ـ وما الذى يمكن أن يفعله (العقرب) هذه المرة ؟!

استدار إليها ، مجيبًا :

ـ الكثير .

حدَّقت فى وجهه لحظة ، قبل أن تهزّ رأسها فى قوة ، ثم تتجه إليه ، قائلة :

ـ اسمع يا (نديم) .. هذه المرة تـ ...

لم تكن قد أتمَّت عبارتها بعد ، عندما لمح هو ذلك الوميض ، عبر الشارع ، من البناية العتيقة المقابلة ..

وقبل حتى أن يستوعب عقله معناه ومغزاه ، تحطَّمت النافذة بغتة ..

وانطلقت صرخة (غادة) عالية ..

وتناثرت الدماء فى حجرة مكتب (نديم) ..

بعنف ..

* * *

« ما الذى يثير توترك إلى هذا الحد أيها العقيد ؟! »

ألقى اللواء (حلمى) سؤاله هذا فى هدوء شديد ، ضاعف من توتر العقيد (مجدى) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ الأمر كله أعجز عن فهمه يا سيادة اللواء .. فبغضّ النظر عن الآراء الشخصية ، نحن نعتبر (العقرب) مجرمًا خارجًا عن القانون ، والمفترض أن نسعى للإيقاع به ، وكشف أمره ، لا أن نهرع لإنقاذه ، من كل مأزق يقع فيه .

أخفى اللواء (حلمى) ابتسامته بصعوبة ، وهو يقول :

ـ حسبما أذكر ، وحسبما تقول الأوراق الرسمية ، لايوجد أى أمر من النيابة أو القضاء ، بضبط وإحضار هذا (العقرب) .

قال (مجدى) فى حدة :

ـ أمر طبيعى ، لأنه لا يوجد عمليًا ورسميًا شخص يُدعى (العقرب) وكلنا نعلم أنه اسم مستعار ، يتخذه ذلك المحامى الفاشل (نديم فوزى) ، عندما يضع قناعه السخيف ، ويخرج لمحاربة الجريمة ، متصورًا أنه (زورو)(*) أو (باتمان)(**) .

مال اللواء (حلمى) إلى الأمام ، وهو يسأله فى رصانة هادئة :

ـ هل يوجد (رسميًا) ، ما يثبت أن (نديم فوزى) هو (العقرب) ؟!

(★) زورو : شخصية ابتكرها (والت ديزنى) ، من الأدب الشعبى المكسيكى ، وهى عن مكافح مقنّع للجريمة ، يقاوم الاحتلال الإسبانى ، فى الزمن القديم ، ولقد تحولت إلى شخصية عالمية ، فى عشرات القصص وأفلام السينما .

(★★) باتمان : مكافح جريمة حديث ، يرتدى قناعًا وحرملة ، ويحيا فى الليل كالخفاش ، وهى واحدة من أشهر الشخصيات ، فى عالم القصة المصوّرة ، والتلفزيون ، والسينما .



قال (مجدى) فى عصبية :

ـ هذا ما نسعى لإثباته .

تراجع اللواء (حلمى) فى مقعده ، وقال :

ـ عظيم .. وإلى أن نثبته ، سيظلّ (نديم فوزى) شخصًا مسالمًا بريئًا ، لا يمت لأدنى صلة بالعقرب .

هتف (مجدى) فى حنق :

ـ أى عبث قانونى هذا ؟!

ابتسم اللواء (حلمى) ، على الرغم مما فى أسلوب (مجدى) من تجاوز ، وقال فى هدوء :

ـ نفس العبث القانونى ، الذى يسعى (العقرب) لتجاوزه ، وهو يواجه خصومه ، الذين يحتمون بثغرات وفجوات القانون .

أدرك (مجدى) ما يعنيه اللواء (حلمى) ، فتراجع برأسه ، ورفعه مع شد قامته ، وهو يقول فى اعتداد صارم :

ـ القانون هو القانون .

هَزَّ اللواء (حلمى) كتفيه ، وقال :

ـ بالتأكيد .

ثم واصل فى سرعة ، وكأنما يسعى لتجاوز هذا الموقف :

ـ قل لى : ما الذى انتهى إليه تقرير البحث الجنائى ، حول حريق مخازن (رشاد السلباوى) ؟!

نجح أسلوبه فى تحويل دفة الحديث ؛ فقد قال (مجدى) فى توتر :

ـ إنه حريق متعمَّد .

أومأ اللواء (حلمى) بكتفيه ، مغمغمًا :

ـ أمر متوقَّع .

أضاف (مجدى) :

ـ ولقد انتزعوا كعوب الكتب قبل إحراقها .

التقى حاجبا اللواء (حلمى) ، وهو يقول فى توتر :

ـ كعوب الكتب ؟!

ورفع يده إلى ذقنه ، وهو يفكر فى هذه النقطة فى عمق ، و(مجدى) يقول :

ـ كانوا يخفون شيئًا ما فيها حتمًا .

أشار اللواء (حلمى) بسبَّابته ، قائلاً فى اهتمام شديد :

ـ السؤال هو : ما هذا الشئ ؟! ما الذى أخفوه فى كعوب الكتب ، ونجحوا فى تهريبه إلى البلاد ؟

غمغم (مجدى) فى حذر :

ـ من يدرى ؟!

نهض اللواء (حلمى) من خلف مكتبه ، وهو يشير إلى رأسه ، قائلاً :

ـ الأمر يحتاج إلى معادلة منطقية ، فلو أن (رشاد السلباوى) مجرَّد واجهة لمنظمة خطيرة ، تسعى لغسيل أموالها القذرة لدينا ، فمن المؤكَّد أن ما حوته كعوب الكتب كان شيئًا صغير الحجم ، غالى الثمن فى الوقت ذاته ، والشىء الوحيد ، الذى يمكن أن تنطبق عليه هذه الصفة هو الـ ...

قاطعه رنين هاتفه المباغت ، فالتقط سمَّاعته بحركة آلية ، وقال فى شىء من التوتر :

ـ اللواء (حلمى) .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدِّثه ، قبل أن يقول فى عصبية ، بلغت حدًّا عجيبًا :

ـ سنحضر فورًا .

هتف (مجدى) ، فى فضول متوتر ، لم يستطع كبحه :

ـ ماذا حدث ؟!

التفت إليه اللواء (حلمى) بوجه شاحب ممتقع ، قبل أن يقول فى ارتياع واضح :

ـ (نديم) و(غادة) تم اغتيالهما .

واتسعت عينا (مجدى) عن آخرهما ..

فعلى الرغم من اعتراضه على أسلوب (نديم) ، كان الخبر بالنسبة إليه صدمة ..

صدمة عنيفة ..

للغاية .

* * *

٨ ـ استيراد .. وتصدير ..

لم يكد الهاتف المحمول الخاص بالمحامى (إدوارد) ينطلق ، حتى التقطه هذا الأخير فى سرعة ، ووضعه على أذنه ، قائلاً :

ـ كيف الحال ؟!

أتاه صوت خشن جاف ، يقول بالإيطالية :

ـ المهمة انتهت ، تمت إبادة الهدف بنجاح .

تألّقت عينا (إدوارد) فى نشوة ، وهو يقول بالإيطالية أيضًا :

ـ رائع .. غادر موقعك فورًا يا (ماريو) .. الشرطة المصرية تتحرك بسرعة ، فى مثل هذه الحوادث .. نفذ فورًا .

قال (ماريو) ، بصوته الخشن الجاف :

ـ ماذا عن السيارة ؟!

أجابه فى سرعة وانفعال :

ـ ستنتظرك فى الموقع المتفق عليه .. ولا تنس أن تترك البندقية ذات المنظار خلفك .

غمغم (ماريو) :

ـ بالتأكيد .

أضاف (إدوارد) فى صرامة :

ـ اللحية والجلباب الأبيض أيضًا لهما أهمية بالغة .. هل تفهم ؟!

صمت (ماريو) لحظة ، قبل أن يقول فى خشونة أكثر جفافًا :

ـ هذا أسخف أمر ، فى العملية كلها .

أجابه (إدوارد) فى صرامة شرسة :

ـ نفذ الأوامر ، لتتقاضى أجرك كاملاً .

غمغم (ماريو) :

ـ فليكن .

ثم أنهى المحادثة فى عنف أحنق (إدوارد) ، وجعل (رشاد) يتساءل فى عصبية :

ـ هل .. هل اغتالهما ؟!

رمقه (إدوارد) بنظرة ازدراء ، وتجاهل تساؤله تمامًا ، وهو يضغط أزرار هاتفه المحمول فى سرعة ، ثم يقول :

ـ (جابر) .. إنه أنا .. المبيد الإيطالى أنهى مهمته .. اعملوا على استعادة كتابنا فورًا .

لم يكد ينهى الاتصال ، حتى قال (رشاد) فى حدة :

ـ أسلوب التجاهل هذا لا يناسبنى قط .

استدار إليه (إدوارد) ، متسائلاً فى برود :

ـ ما الذى يناسبك إذن ؟!

صاح فى غضب :

ـ أريد معرفة ما يحدث .

أدار (إدوارد) جسده كله إليه ، وقال فى صرامة جافة :

ـ الأمر ببساطة أن المبيد ، الذى استوردناه من (إيطاليا) ، قد أتمّ مهمته بنجاح ، وقام بتصدير الطردين إلى الجحيم مباشرة .

لوّح (رشاد) بذراعه ، هاتفًا :

ـ مبيد ، واستيراد ، وتصدير ، وجحيم .. أشعر وكأننى جزء من منظمة إجرامية ضخمة .

رمقه (إدوارد) بنظرة نارية ، وهو يقول :

ـ أنت كذلك بالفعل .

امتقع وجه (رشاد) ، وكأنما باغته الجواب ، وارتعدت ساقاه ، مما جعله يأوى إلى أقرب مقعد إليه ، وهو يغمغم فى شحوب :

ـ هذه الأمور لن تمضى على خير أبدًا .

أجابه (إدوارد) فى صرامة :

ـ هذه الأمور تمضى على خير ما يرام .. لقد جعلت منك مليونيرًا ، وأحد رجال الأعمال المعدودين فى (مصر) ، ومنحتك الكثير دون عملٍ .

انتفض (رشاد) ، هاتفًا :

ـ دون عمل ؟! إن كل ما تفعلونه يحمل اسمى يا رجل .. كل المسئولية المدنية والجنائية أحملها على كاهلى وحدى !

قال (إدوارد) فى حدة :

ـ وتحصل على مقابل رهيب لهذا .

صاح (رشاد) :

ـ وماذا لو انقلبت الأمور ؟!

أجابه بكل الصرامة :

ـ لن تنقلب .

لم يكد يتم إجابته ، حتى ارتفع رنين هاتفه المحمول مرة أخرى ، فالتقطه فى عصبية ، قائلاً :

ـ من المتحدِّث ؟!

انعقد حاجباه بغتة بشدة ، واحتقن وجهه حتى كادت تتفجَّر منه الدماء ، فهتف (رشاد) فى ارتياع :

ـ ماذا هناك ؟!

حدَّق فيه (إدوارد) بعينين زائغتين ، دون أن ينطق بحرف ..

حرف واحد ..

فبالنسبة إليه كانت المفاجأة عنيفة ..

ومذهلة ..

بشدة ..

* * *

لم يكد (جابر) يتلقى أمر المحامى (إدوارد) ، حتى هتف بزميله :

ـ هيا .. سنستعيد ما لنا .

اندفع الاثنان يصعدان إلى حيث مكتب (نديم) ، وهتف (جابر) ، عندما بلغا الطابق المنشود :

ـ تول أنت أمر عامل المكتب ، وسأستعيد أنا الكتاب .

اقتحما المكتب فى عنف ، وهما يحملان سلاحيهما ..

ولكن عم (أحمد) لم يكن هناك ..

كان باب المكتب مفتوحًا ، ولا أثر فيه للشيخ ، فى حين كانت ساق (غادة) تبدو واضحة ، على أرضية حجرة مكتب (نديم) ، وحولها بقع من الدم ، فهتف الرجل الآخر :

ـ أين ذهب ذلك المأفون ؟!

أجابه (جابر) ، وهو يندفع نحو حجرة مكتب (نديم) :

ـ أصابه الرعب وفرَّ هاربًا حتمًا .. دعك منه الآن .. ينبغى أن نتمَ مهمتنا هنا قبل عودته .

كانت الحجرة تحمل آثار ما حدث فى وضوح عندما اقتحماها ، فقد كان زجاج النافذة محطمًا ، والدماء متناثرة فى كل مكان ، و(غادة) ملقاة أرضًا ، مع بقعة كبيرة من الدم فى ظهرها ، و ...

« أين المحامى ؟! »

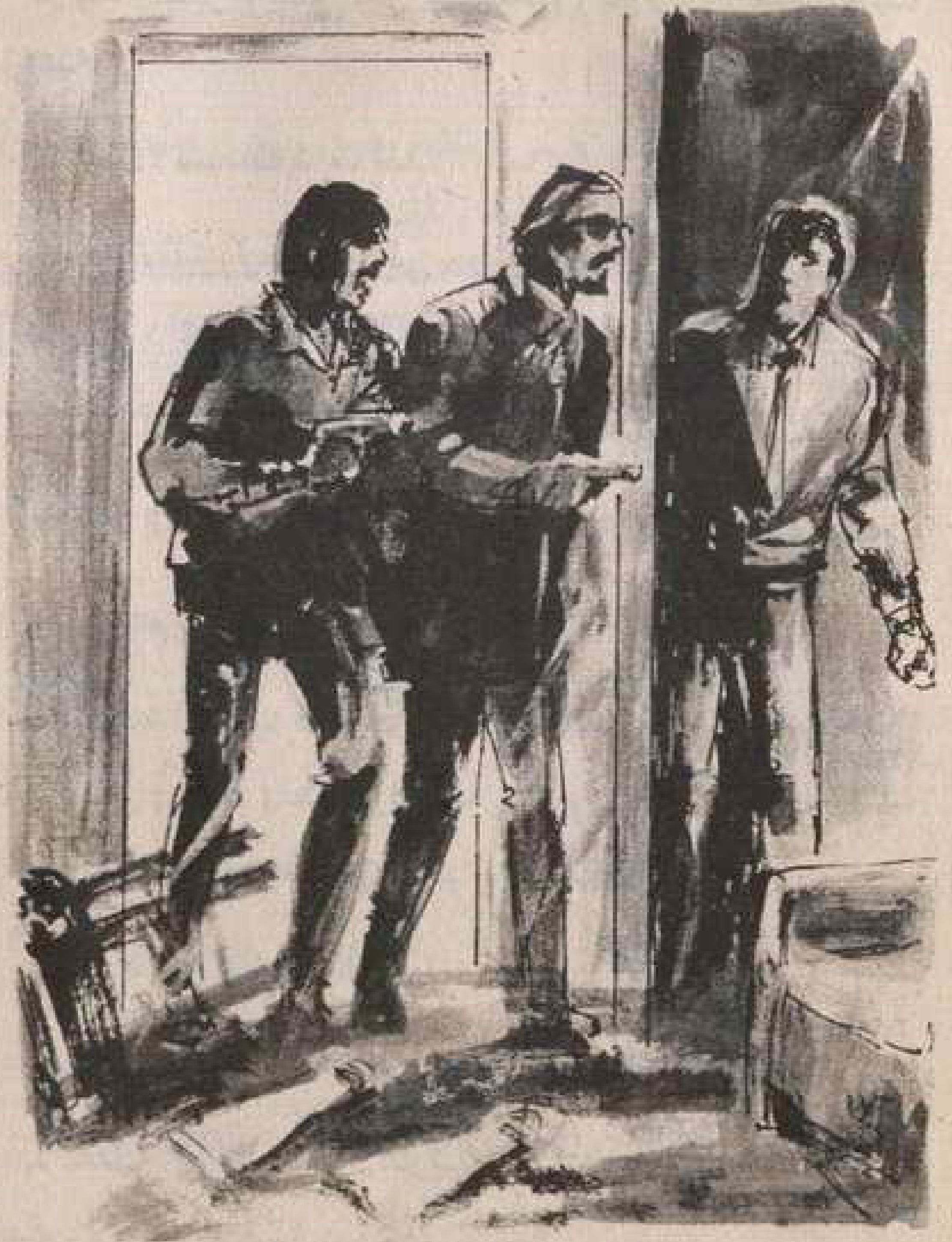
هتف زميل (جابر) بالعبارة فى دهشة مذعورة ، وهو يحدّق فى أرضية الحجرة ، ولم يكد يفعل ، حتى انبعث من خلف الباب صوت صارم غاضب ، يقول :

ـ هنا .

استدار الرجلان بسلاحيهما إلى مصدر الصوت بحركة سريعة .. ولكنها لم تكتمل أبدًا ..

فقبل أن يكمل الأوّل التفاتته ، كانت قبضة (نديم) تحطّم أنفه بلكمة كالقنبلة ، دفعته إلى الخلف فى عنف ، فى نفس اللحظة التى انقضّ فيها (نديم) على (جابر) ، بكل عنف وغضب الدنيا ، هاتفًا :

ـ أيها الأوغاد .



أراد (جابر) أن يرفع فوهة سلاحه ..

أو أن يفعل أى شىء ..

ولكن الغضب الذى يملأ نفس (نديم) ، بعد إصابة زميلته (غادة) ، كان قد حوله إلى وحش كاسر وأسد هصور ، لا يمكن لأية قوة فى الأرض أن تعترضه أو توقفه ..

وهذا ما شعر به (جابر) ، عندما تلقى لكمة فى معدته ، كادت تقذف أحشاءه خارج حلقه ، مع تلك الشهقة التى أطلقها ، وهو ينثنى على نفسه ، قبل أن تتحطم أسنانه بلكمة أخرى أكثر عنفًا ، انتزعته من مكانه ، وألقته مترين كاملين إلى الخلف ، ليرتطم بالجدار ، ثم تستقبله لكمة أخرى فى أنفه ، تفجّرت معها الدماء لتغرق كل وجهه ، وغامت بعدها الدنيا أمام عينيه ، وحاول أن يندفع إلى الأمام ، أو أن يضرب أى هدف عشوائى بقبضتيه ، لولا أن ارتطم فكه بلكمة جديدة ، أسقطته أرضًا فاقد الوعى ..

وفى نفس لحظة سقوطه ، نهض زميله مترنحًا ، واستعاد مسدسه ، وهو يهتف فى ثورة :

ـ أيها الـ ..

قبل أن يتمّ عبارته ، اضطر مرغمًا لابتلاع ثلاث من أسنانه ، حطمتها قبضة (نديم) ، ودفعتها نحو حلقه ، قبل أن يجذبه هذا الأخير من شعره ، ويندفع به عبر الحجرة ؛ ليضرب رأسه بالجدار ، بكل ما يملأ جسده من قوة وبأس ..

وسقط الرجل أرضًا ، مع دوى أبواق سيارة الإسعاف وسيارات الشرطة ، التى تهرع إلى المكان ، فالتقط (نديم) من ثلاجة حجرته الصغيرة زجاجة من الماء البارد ، سكبها كلها على رأس (جابر) ، الذى انتفض فى عنف ، وهتف فى ألم وذعر شديدين :

ـ ما الذى ....

قبل أن يتمّ عبارته ، جذبه (نديم) من شعره فى قسوة ، وسأله :

ـ من فعل هذا ؟!

هزّ (جابر) رأسه لحظة ، فتلقّى قنبلة أخرى فى معدته ، جعلته يبصق الدم مع شهقته ، قبل أن يكرّر (نديم) سؤاله ، بكل صرامة الكون :

ـ أعلم أنها أوامر ذلك الحقير (إدوارد) ، ولكن من فعلها ؟! من قام بالتنفيذ ؟!

تعالى وقع أقدام رجال الشرطة والإسعاف على سلالم المبنى ، مع لهاث (جابر) ، وهو يجيب :

ـ لست أدرى .. إنه شخص أجنبى .

سأله (نديم) فى قسوة ، وهو يلوِّح بقبضته :

ـ وما جنسيته ؟!

لهث (جابر) على نحو أكثر عنفًا ، وهو يقول ، محاولاً حماية وجهه :

ـ إيطالى على الأرجح .

ثم هتف فى ذعر وألم :

ـ أقسم إن هذا كل ما أعرفه .

هوى (نديم) على فكه بلكمة خطافية سفلية ، وهو يقول :

ـ وهذا كل ما أردت معرفته .

فى نفس اللحظة ، التى سقط فيها (جابر) فاقد الوعى مرة أخرى ، والتى التقط فيها (نديم) هاتفه المحمول من حزامه ، اندفع رجال الشرطة والإسعاف إلى المكان ، وخلفهم عم (أحمد) يهتف فى ارتياع :

ـ أسرعوا بالله عليكم .. أسرعوا ..

اعتدل (نديم) ، ودسَّ هاتف (جابر) فى جيبه ، قائلاً :

ـ أسرعوا .. إنها مصابة ، وتحتاج إلى إسعاف عاجل .

حدَّق عم (أحمد) فى وجهه ، هاتفًا :

ـ أستاذ (نديم) .. حمدًا لله .. لقد تصورَّت أن ....

أجابه (نديم) ، قبل أن يتمَّ عبارته :

ـ الرصاصة اخترقت جسد (غادة) ، وجرحت ذراعى فحسب ، يا عم (أحمد) .

هتف به أحد رجال الإسعاف :

الدماء تغرق ذراعك .. إنك تحتاج إلى إسعاف .

قال (نديم) فى صرامة :

ـ (غادة) أوَّلاً .

سأله أحد رجال الشرطة فى توتر :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

أشار (نديم) إلى النافذة المحطمة ، وهو يتابع حركة رجال الإسعاف ، الذين ينقلون (غادة) إلى محفتهم ، قائلاً :

– يبدو أنه حتى الأساليب الأجنبية يتم استيرادها هذه الأيام .

ثم أدار عينيه إلى رجل الشرطة ، مضيفًا فى حنق :

– إنه قاتل محترف .

اتسعت عينا رجل الشرطة ، وهو يهتف :

– قاتل محترف ؟!

أجابه (نديم) فى توتر ، وهو يشير إلى النافذة مرة أخرى :

– ألديك تفسير آخر ؟!

حدَّق ضابط الشرطة فى النافذة المحطَّمة ، قبل أن يندفع نحوها ، ويفحص ما أصابها ، ثم يتطلَّع إلى المبنى المقابل ، قائلاً فى صرامة :

– هذه الأساليب لا تصلح هنا ، ولو أنهم ....

كان يلتفت إلى (نديم) ، وهو يتحدَّث إليه ، فبتر عبارته دفعة واحدة ، وهو يدير عينيه فى الحجرة ، متسائلاً فى حيرة :

– أين السيِّد (نديم) ؟!

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها تساؤله ، كان (نديم) يهبط فى درجات السلم ، وهو يلتقط من جيبه هاتف (جابر) المحمول ، ويضغط رقم (إدوارد) فى سرعة ، ولم يكد يسمع صوت هذا الأخير ، حتى قال فى لهجة قاسية ، صارمة ، مخيفة :

– (العقرب) يرسل تحياته أيها الوغد .. قاتلك الحقير لم ينجح فى إتمام مهمته .. حاول أن تحيط نفسك بكل حراسة الدنيا ؛ لأننى قادم إليك لأحطمك .

ثم أنهى المحادثة ، وألقى هاتف (جابر) بعيدًا ، وقد امتلأت نفسه بهدف واحد ..

الثأر ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

انتزع (ماريو) تلك اللحية المستعارة ، التى أجبره (إدوارد) على ارتدائها ، وألقاها بعيدًا فى حدة ، هاتفًا :

– لست أدرى ما الداعى لكل هذه السخافات ؟!

أجابه (إبراهيم) ، أحد رجال (إدوارد) :

ـ السيِّد (إدوارد) بعيد النظر ، وما دام قد أمرك بهذا ، فلديه أسبابه حتمًا .

سأله (ماريو) ، وهو يخلع الجلباب الأبيض ، ويلقيه بعيدًا بدوره :

ـ أين هو .. لدينا أمور ينبغى أن نحسمها .

أشارَ (إبراهيم) بيده ، قائلاً :

ـ إنه فى انتظارك ، ولقد أمر برفع درجة الأمن إلى الحد الأقصى .. يبدو أن الأمور لا تسير على النحو المطلوب .

مطَّ (ماريو) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ كنت أتصوَّر العكس تمامًا .

وعلى الرغم مما أخبره به (إبراهيم) ، شعر (ماريو) بدهشة حقيقية ، عندما استوقفه رجال أمن المكان ثلاث مرات ؛ للتحقق من هويته ، خلال الأمتار القليلة ، التى قطعها ، حتى مكتب (رشاد السلباوى) ، لذا فلم يكد يلمح (إدوارد) داخله ، حتى هتف فى حدة وعصبية :

ـ ألا يبدو لكم أنكم تبالغون فى نظم الأمن كثيرًا ، أيها المصريون ؟!

أجابه (إدوارد) فى حدة :

ـ كل هذا بفضلك ، أيها الإيطالى الفاشل .

تسمَّر (ماريو) فى مكانه ، وهتف بمزيج من الدهشة ، والغضب ، والاستنكار :

ـ فاشل ؟! أنا ؟!

صاح به (إدوارد) :

ـ نعم .. لقد فشلت فى اغتيال خصمنا ، وجعلته ينطلق خلفنا كالمسعور .

هتف (ماريو) فى حدة :

ـ أنا لم أفشل .. لقد أطلقت عليه النار ، وزميلته اعترضت طريق الرصاصة فى اللحظة الأخيرة .

صاح (إدوارد) :

ـ أرأيت ؟!

أشار (ماريو) إلى صدره ، وهو يهتف فى غضب :

ـ ولكننى محترف يا سنيور (إدوارد) .. محترف يدرك

جيدًا ما يفعله .. لقد اخترقت رصاصة بندقيتى جسدها ، ثم عبرته إلى جسده .. تلك البندقية التى استخدمتها بعيدة المدى ، ورصاصاتها قادرة على اختراق أقوى الدروع ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، انبعث رنين هاتف (إدوارد) المحمول ، فالتقطه هذا الأخير بحركة آلية ، قائلاً فى عصبية :

ـ من هناك ؟!

أتاه صوت أحد رجال أمن مدخل الشركة ، وهو يقول فى توتر :

ـ سيِّد (إدوارد) .. هناك رجل شرطة يصرّ على مقابلتك فورًا .

ردَّد (إدوارد) فى عصبية أكثر :

ـ مقابلتى أنا ؟!

أجابه الحارس فى حزم :

ـ شخصيًّا .

صمت (إدوارد) بضع لحظات ، محاولاً السيطرة على عصبيته وتوتره ، قبل أن يسأل الحارس فى حدة :

ـ هل تأكّدت من هويته ؟! أعنى أهو ضابط شرطة بالفعل .

أجابه الحارس فى سرعة :

ـ إنه يحمل بطاقة هوية صحيحة ..

ثم استدرك :

ـ ويعلم أنك هنا .



زفر (إدوارد) فى توتر ، وهو يقول بعصبية زائدة :

ـ فليكن .. سألتقى به .

وأغلق هاتفه المحمول ، وهمّ بوضعه فى جيبه ، عندما عاودته شكوكه فجأة ، فعاد يضغط أزراره ، ليسأل الحارس بنفس العصبية :

ـ ذلك الشرطى .. هل ...

قاطعه الحارس فى سرعة ، متصورًا أنه قد فهم ما يقصده :

ـ لقد سمحنا له بالدخول يا سيد (إدوارد) .

صاح به (إدوارد) فى حنق :

ـ اسمه أيها الغبى .. ما اسمه ؟

راجع الحارس أوراقه فى سرعة ، قبل أن يجيب :

ـ (نديم) يا سيِّد (إدوارد) .. (نديم فوزى) .

اتسعت عينا (إدوارد) ، فى شىء من الارتياع ، وهو يهتف :

ـ ياللشيطان ! إنه هنا .

سأله (ماريو) فى توتر :

ـ ماذا تقول ؟! وجهك وصوتك يوحيان بحدوث أمر جلل .

تجاهله (إدوارد) تمامًا ، وهو يهتف عبر الهاتف المحمول :

ـ إنه ضابط شرطة زائف أيها التعس .. أغلق أبواب المبنى كلها ، ولا تسمح لأى مخلوق بالخروج ، واضغط زر صفارة الطوارئ فورًا .. هل تفهم ؟!

ضغط الحارس الزر على نحو غريزى ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ كما تأمر يا سيِّد (إدوارد) .. كما تأمر .

مع انطلاق صفارة الطوارئ ، فى المبنى كله ، استلّ (ماريو) مسدسه بحركة غريزية ، وهتف فى توتر شديد :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه (إدوارد) بالإيطالية :

ـ الهدف ، الذى فشلت فى تصديره فى المرة الأولى ، أتى بقدميه إليك هنا .

تألَّقت عينا (ماريو) فى وحشية ، وهو يقول :

ـ حقًّا ؟! سيروق لى كثيرًا أن أعيد الجولة ، بأسلوب جديد ..

ضغط (إدوارد) عدة أزرار على مكتبه ، وهو يقول فى انفعال :

ـ ولن تكون وحدك .

وبأوامر قصيرة محدودة ، تحوّل رجال الأمـن ، فـى المبنى كله ، بقيادة القاتل الإيطالى المحترف (ماريو) ، إلى فرقة قنص ، تنشد فريسة واحدة ..

(العقرب) ..

وبأى ثمن ..

* * *

تابع فى الكتاب القادم .

الرجل الذى رأى الغد

(دراسة)

فجأة تعرَّضت الولايات المتحدة الأمريكية لضربة عنيفة ، انطلقت مـن قلبها ، وعلى متن طائراتها المدنية ، ودون سابق إنذار ، لتهوى كصاعقة من الرعب على رمزين ضخمين ، من رموزها الاقتصادية والعسكرية ..

مبنى التجارة العالمى فى (نيويورك) .. ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) فى (واشنطن) .

ولساعات وأيام طويلة بعدها ، انشغلت أجهزة الإعلام ، فى العالم أجمع ، بنقل ورصد وتسجيل ما حدث ، ومناقشة احتمالاته ، وتوقعاته ، وكل الإجراءات الى اتخذت بشأنه ..

ومن أقصى العالم لأقصاه ، لم يتوقَّف الحديث أيضًا عن فلكى وطبيب فرنسى ، مات منذ ما يقرب من خمسة قرون ، ويدعى (نوستراداموس) ..

والسبب .. وبكل بساطة ، هو أن (نوستراداموس) هذا قد تنبأ بما حدث ، وأشار إليه ، وسجّله فى أشهر كتبه ..

وأيضًا منذ ما يقرب من خمسة قرون !!

وكما يحدث فى كل مرة ، انقسم العالم إلى قسمين ، قسم انبهر بنبوءة الفلكى الفرنسى ، ذى الأصول اليهودية ، وقسم رفضها وأنكرها واستنكرها تمامًا ، استنادًا إلى قاعدة تقول : «كذب المنجمون ولو صدقوا» ، باعتبارها قاعدة لاتقبل الجدل والمناقشة ، على الرغم من أنها ليست واردة فى القرآن الكريم ، أو فى أحد الأحاديث النبوية ، أو حتى فى الإنجيل أو التوراة ..

وعندما نستخدم هنا عبارة كل مرة ، فإننا نعنى أنها ليست أوَّل مرة يثار فيها هذا الجدل العنيف ، حول تنبؤات (نوستراداموس) ، التى تضمنّها كتابه الشهير (قرون) ، والذى يعدّ ، من الناحية العلمية والفعلية ، أكثر الكتب مبيعًا ، خلال ما يزيد على أربعمائة سنة كاملة ، لم تنفد خلالها طبعاته ، ولو لعام واحد ، مما يمنحه مزية خاصة ، لم يتمتّع بها كتاب كتبه بشرى ، على مدى التاريخ ..

فحتى فى حياة (نوستر اداموس) ، وبعد وفاة الملك (هنرى) ، التى تنبأ بها الرجل ، وبدقة مدهشة ، غضبت الملكة (كاترين دى مديتشى) من الفلكى ، وكأنما تسبَّبت نبوءته

فى مصرع الملك ، مما دعاه إلى الفرار بعيدًا عنها ، خوفًا على حياته ، خاصةً وأن ذلك العهد قد اشتهر بمحاكم التفتيش ، التى كان من السهل أن يقع رجل مثل (نوستر اداموس) فى قبضتها ، بتهمة السحر والهرطقة ، ليلقى مصرعه حرقًا بكل بشاعة ..

وبلا رحمة ..

وخلال الحرب العالمية الثانية ، وقعت نسخة من كتاب (نوستراداموس) الأشهر فى يد زوجة (جوبلز) وزير إعلام العهد النازى ..

ولقد هالها وأفزعها ، وأثار رعبها حتى النخاع ، ما استخلصته منه ، حتى إنها أيقظت زوجها من نومه ، لتلخص له ما توصّلت إليه ، بكلمات مرتجفة ، حملت كل انفعالاتها ..

وفى البداية ، لم يستوعب (جوبلز) الأمر أو يهضمه ، حتى وضعته زوجته أمام معادلة مبهرة ..

فعلى الرغم من أن الكتاب ، الذى تحمله فى يدها ، كان طبعة عام ١٩٢٢م ، إلا أنه كان يحوى رباعية مثيرة إلى أقصى حد ، تقول :

الحيوانات التى سيقرصها الجوع ستعبر الأنهار

الشطر الأكبر من ساحة القتال سيكون ضد (هسلر)

سيجرّ القائد فى قفص حديدى

عندما يتجاهل ابن ألمانيا كل قانون .

وقفز (جوبلز) من فراشه ، وهو يُحدّق فى كلمات الرباعية ، ويطالعها مرة بعد مرة ..

صحيح أن الرباعية قدمت اسم (هتلر) بـ (هسلر) ، ولكنها واضحة أكثر مما ينبغى .. إنه (هتلر) المقصود ولا شك ..

وقبل حتى أن تشرق الشمس ، كان (جوبلز) يرتدى زيه العسكرى ، ويهرع إلى مكتبه ، ليضع خطة لاستغلال كتاب (نوستر اداموس) هذا فى حرب دعائية جديدة ، لم يلجأ إليها جهاز دعائى من قبل ..

ولقد راقت الفكرة للفوهلر كثيرًا ، ووجد أنها دعاية غير مسبوقة ، لذا فقد انتقى (جوبلز) كل ما يمكن أن يوحى بعظمة (ألمانيا) وانتصاراتها ، من رباعيات الفلكى الفرنسى القديم ، وقام بطباعة كل هذا فى نشرة دعائية خاصة ،

تمت ترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية والهولندية ، لتلقيها الطائرات على كل البلدان الأوروبية ، التى تتحفز وتترقّب ما سيقدم عليه القائد النازى ، بجيوشه الجرّارة ، التى اجتاحت (النمسا) ، بحجة استعادة ما انتزع منها فى الحرب العالمية الأولى ، وباتت تتأهّب لغزو (أوروبا) ، وفرض سيطرتها على العالم أجمع ..

وفى البداية ، لم تبال المخابرات البريطانية بهذا الأمر ، بل وسخرت منه أيضًا ، حتى فوجئت بتأثيره الرهيب ، ليس على المجتمع البريطانى فحسب ، ولكن على (أوروبا) كلها أيضًا ..

وهنا كان لابد من اتخاذ قرار حاسم حازم فى هذا الشأن ، نظرًا لأن الناس ، فى كل الأزمنة والأزمات ، تولى التنجيم والفلك والتنبؤات المستقبلية اهتمامًا بالغًا ..

ففى الحروب والأزمات ، تضعف النفوس ، وكما قالت الكاتبة البوليسية الخالدة (أجاثا كرستى) : « إذا ما ضعفت النفس ، استسلمت للخرافة » .

وكإجراء مضاد ، جمعت المخابرات البريطانية كل ما يحويه كتاب (قرون) ، من تنبؤات تختص بهزيمة (ألمانيا)

وانتحار (هتلر) ، بعد حصاره فى (برلين) !! وألقت كل هذا بطائراتها ، على الشعب الألمانى ، كما ترجمته إلى الفرنسية والهولندية أيضًا ، لرفع معنويات شعوب (أوروبا) الأخرى ..

وهكذا أصبح (نوستراداموس) جزءًا من الحرب العالمية الثانية ، بعد وفاته بأربعة قرون كاملة ..

والسؤال المهم الآن هو : من (نوستر اداموس) هذا ؟! وكيف احتل كتابه هذه المكانة المدهشة عبر القرون ، حتى فى عصر التكنولوجيا والتقدم ، والذى تنبأ هو أيضًا بقدومه ، فى رباعيته المدهشة :

يقضى على الأوبئة ، ويصبح العالم قرية صغيرة

وفى سلام ، ترتاح الأرض لمدة طويلة ..

الناس ستسافر فى أمان ، عبر الجو والبر والبحر

ثم تندلع الحروب من جديد .

هل يمكن لأحد أن يتصور مدى عبقرية هذه الرباعية المدهشة ، وخاصة عندما يكتبها رجل من القرن السادس عشر ، بكل إمكانياته المحدودة ؟!

القضاء على الأوبئة ، من خلال برامج صحية ، وأمصال ولقاحات متطورة ، والعالم يصبح ، بفضل تطور وتكنولوجيا الاتصالات مجرد قرية صغيرة ، والناس تسافر عبر الجو !!

عبقرية بكل المقاييس ، حتى ولو كانت مجرد تنبؤات علمية ، لرجل بعيد النظر ، وليست تنبؤات فلكية مستقبلية ..

و(ميشيل دى نوستر اداموس) هذا ، صاحب تلك التنبؤات المدهشة ، ينتمى إلى أسرة يهودية أوروبية قديمة ، فجده (بيير دى نوستر اداموس) تاجر غلال يهودى قديم ، اهتم كمعظم أقرانه بالعلم والدراسة ، إلى جانب عمله ، وأنجب عددًا من الأبناء ، من بينهم (جاك نوستر اداموس) ، والد (ميشيل) ، الذى تزوَّج من امرأة ثرية ، وسُرعان ما اعتنق معها المسيحية وابنه (ميشيل) بعد فى التاسعة من عمره ..

ولقد وُلد (ميشيل) هذا فى الرابع عشر من ديسمبر ، عام ١٥٠٣ م ، وهو أكبر أربعة إخوة ، وأكثرهم ذكاءً منذ الصغر ..

وفى مرحلة متقدِّمة من سنوات صباه ، أدرك جده (بيير) موهبته ، فاحتضنه ، وعلَّمه اللاتينية ، والإغريقية والعبرية ، بالإضافة إلى مبادئ الرياضيات والفلك والتنجيم ..

ولأن تلك الفترة كانت فى عهد محاكم التفتيش ، فقد خشى والده (جاك) أن يقع الصبى فريسة لتهمة ظالمة ، واستعاده من جده ، ليرسله لدراسة الطب فى (مونبلييه) ، وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة بعد ..

وفى تلك الفترة ، ودون مقدمات ، ظهرت موهبة (نوسترادا موس) فجأة ، فبينما كان يرحل مع بعض أصدقائه ، التقى براهب صغير السن ، يحصل على رزقه من تربية الخنازير ، فاتجه إليه باكيًا ، وكأنما تدفعه إلى هذا قوة تفوق إرادته ، وانحنى أمامه ، ملقبًا إياه بصاحب القداسة ..

وكانت دهشة أصدقائه بما فعله بالغة ، ولقد سأله أحدهم لماذا فعل هذا ، فأجابه (ميشيل) ، وكأنما يتحدث عن حقيقة :

- لأنه هكذا ينبغى أن أفعل ..

والعجيب أن هذا الراهب (فليتشى بريتى) ، قد أصبح فيما بعد ، وبعد وفاة (ميشيل) نفسه البابا الجديد ، عام ١٥٨٥م !!

المهم أن (ميشيل دى نوسترادا موس) قد درس الطب ، وأبدى فيه تفوقًا ملحوظًا ، أهَّله للحصول على شهادته بتفوق ، ليعود بها إلى أسرته ، التى بدت أكثر منه فرحًا وزهوًا بما حصل عليه ابنها ..

ولكن علاجات (ميشيل) وأسلوبه أثارا دهشة العديدين من أقرانه ، واستنكارهم أيضًا .. حتى جاءت الكارثة الرهيبة ..

الطاعون الأسود ..

وهنا كانت مفاجآت (نوستر اداموس) مدهشة ..

وإلى أقصى حد ..

* * *

مايو ١٧٩١م .. أوج الثورة الفرنسية ، وبعد أن سقطت كل الرءوس ، وحتى رءوس قادتها التى طارت تحت المقصلة ..

وثلاثة من الرعاع ، لعبت الخمر برءوسهم ، وسيطرت على عقولهم ، فأصرّوا على نبش قبر الطبيب والفلكى الأشهر (ميشيل دى نوستر اداموس) ، كوسيلة همجية سانجة ، لتأكيد سيطرتهم على العهد السابق ، وامتهانهم لكل رموزه ومقدساته ..

ولم تكن مهمتهم بالعسيرة ، فالقبر مجرّد حفرة بسيطة ، فى ساحة كنيسة قديمة ، بداخلها تابوت من الخشب القديم ، الذى تهالك ونخره السوس ، بعد قرنين وأكثر فى التراب ..

وبهمة وحماسة صنعهما السكر ، نبش الثلاثة القبر ، وتعالت صيحاتهم الظافرة ، وهم يرفعون غطاء التابوت ، و ...

وفجأة، احتبست صرخاتهم فى حلوقهم، واتسعت عيونهم فى ذهول، ما له من مثيل .. ولم يكن هذا بالطبع بسبب ذلك الهيكل العظمى المتهالك، الذى تبقى من صاحب أشهر كتاب عبر القرون، وإنما بسبب تلك اللوحة المعدنية القديمة، المعلقة، فى عنقه ..

لوحة منقوش عليها تاريخ يومهم هذا ..

السابع عشر من مايو، عام ١٧٩١م ..

وعلى ظهر اللوحة، التى تنبأ كاتبها بتاريخ نبش قبره، بدقة مذهلة، كانت هناك رباعية تقول :

بعد عامين من ثورة العامة، وفى الشهر الخامس

ثلاثة سكارى ينبشون القبر القديم

اثنان يلقيان مصرعهما فى نفس الليلة

والثالث يبقى مجنونًا حتى النهاية ..

ومع ذهولهم، تراجع الرجال الثلاثة، وامتلأت قلوبهم برعب شديد، وحاولوا الفرار من المكان، ولكن دورية من دوريات الثورة لمحتهم، وأطلقت عليهم النار، فلقى اثنان مصرعهما، وأصيب الثالث بالجنون، من فرط الرعب والذعر ..

وبهذه الواقعة، التى لم ترد فى مصادر تاريخية كافية، بدأت مشاهد أشهر وأقوى فيلم تسجيلى عن (نوستر اداموس)، باعتباره معجزة يهودية، على الرغم من اعتناق أسرته للمسيحية فى حداثته، واعتناقه هو لها، حتى آخر يوم فى حياته ..

وعلى الرغم من أن الفيلم من إنتاج عام ١٩٨٤م، ويقوم بتقديمه الفنان العالمى (أورسون ويلز)، إلا أنه، وفى نهايته، تحدّث عن نبوءتين، اعتبرهما - عندئذ - من المستقبليات ..

عن حرب الخليج (عاصفة الصحراء)، واجتماع الكل على العراق، الذى سيضرب جيرانه بالصواريخ ..

وعن ضربة (نيويورك)، عام ٢٠٠١م ..

ولعل هذا أكثر ما يُبهر فى الفيلم القديم ..

وفى نبوءات (نوستر اداموس) أيضًا ..

واستعراض حياة (ميشيل دى نوستراداموس) يثبت أنه لم يكن عبقرية فلكية فحسب، ولكن عبقرية طبية أيضًا ..

وربما على نحو أكثر قوة ..

ففى شبابه، وبعد حصوله على شهادته الطبية بتفوق،

وممارساته المدهشة للطب والعلاج ، وقعت الكارثة فى (أوروبا) ..

الطاعون الأسود ..

عشرات تساقطوا أمام الوباء الرهيب ، ورائحة الموت ملأت كل القرى والمدن والبلاد ، مع فشل كل طرق المقاومة والعلاج ..

فيما عدا طريقة (نوستر اداموس) ..

فعلى الرغم من أن الرجل كان طبيبًا فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، بعلومه القليلة المحدودة ، وجهله التام بوجود كائنات دقيقة ممرضة ، مثل الجراثيم والميكروبات والفيروسات ، إلا أنه تعامل مع المرض بعبقرية مذهلة ، وكأنه يطبق جزءًا من تنبؤاته أيضًا ..

لقد كان يضع المريض فى حجرة جيدة التهوية ، ذات نوافذ مفتوحة ، ويوقد النار فى المدفأة فى الوقت ذاته ، ويحرص على غلى كل الأدوات المستخدمة معه ، وكل ملابسه ، وتغيرها يومًا فيومًا ، كما استخدم علاجًا لم يتوصل إليه العلم إلا منذ سنوات قليلة جدًّا ..

الماء الساخن ..

كان يسقى المريض الماء الساخن خمس مرات يوميًّا .. وبمنتهى الانتظام ..

لذا فقد شفى معظم مرضاه ..

فيما عدا زوجته وابنيه منها ..

ولقد كان لهذا أسوأ الأثر فى نفسية (ميشيل نوستر اداموس) ، وحياته فيما بعد ، ولسنوات عديدة تالية ، فإلى جوار حزنه وألمه لفقدهم ، فقد راحت أسرة زوجته تحاربه ، لإجباره على إعادة دوطتها بعد وفاتها ، وعندما فشلت فى هذا ، اتهمته بالهرطقة ، وخاصة مع شهرته الواسعة فى شفاء مرض الطاعون ، والتى اعتبرها البعض نوعًا من السحر ، وليس الطب ..

وهرب (ميشيل) ، خوفًا من محاكم التفتيش ..

ومن شهرته كلها ..

ولكن هروبه هذا كان له أكبر الأثر فى حياته ، فلقد توطدت علاقته بأشهر فلاسفة عصره (سيزار سكاليجر) ، مما شحذ ذكاءه ، وضاعف قدره وشهرته ، حتى تزوج مرة أخرى

من أرملة ذات ثروة وجاه ، استقر معها وفى منزلها ، الذى اتخذ لنفسه مكتبة فى طابقه العلوى ، قضى خلالها معظم لياليه ، ووضع فيها أولى لبنات رائعته الخالدة (قرون) ..

وفى عام ١٥٥٥م ، نشرت الطبعة الأولى من (قرون) متضمنة القرون الثلاثة الأولى ، وجزءًا من القرن الرابع ..

واسم (قرون) هذا خادع للغاية ، فالكتاب لا يتحدَّث عن القرون الزمنية التى نعرفها ، وإنما حمل هذا الاسم ؛ لأن (نوستر اداموس) قد وضع تنبؤاته فى شكل رباعيات يحوى كل قرن مائة منها ..

والأحداث فى (قرون) (نوستر اداموس) غير مباشرة ، وغير مرتَّبة تاريخيًّا ، ولم يكن من الممكن أبدًا أن يجازف بالعكس ، فى زمن أعدم فيه من هم أكثر أهمية وشهرة منه ، لأسباب تقلّ عن هذا كثيرًا ..

وحتى وهو يكتب رباعياته ، لم يضعها بأسلوب يسهل فهمه ، فقد وضعها رباعيات شعرية ، تمتزج فيها اللاتينية ، والبروفنسالية ، والإيطالية ، والإغريقية ، وبعبارات رمزية ، تمامًا كما فعل مع الملكة (كاترين دى مديتشى) ، التى انبهرت بشهرته وتنبؤاته ، فاستدعته إليها ، وطلبت منه أن يتنبأ

بمستقبل أبنائها الأربعة ، فصمت (نوستر اداموس) طويلاً ، ثم أخبرها أنه من نسلها يرى أربعة ملوك ..

ولم يُشر (نوستر اداموس) قط إلى وفاة أحد أبنائها ، وإن لم يكذب أيضًا فى عبارته ، لأن أحدهم أصبح ملكًا على (بولندا) ، ثم على (فرنسا) فيما بعد ..

ولقد أنهى (ميشيل دى نوستر اداموس) قرونه العشرة عام ١٥٦٦م ، أى فى نفس عام وفاته ، ولكنها لم تُنشر كاملة إلا فى عام ١٥٦٨م ..

ولسبب ما ، لم تحمله لنا أوراق (ميشيل) أو مذكراته ، لم يكتمل القرن السابع من قرونه ، واقتصر على اثنين وأربعين رباعية فحسب ، وليس مائة رباعية كالقرون الأخرى ..

والمثير أن يحدث هذا مع القرن السابع بالتحديد ، خاصة وأن الرقم سبعة يرتبط بالعديد من المقدسات ، فى معظم الأديان ، وبعدد السموات والأراضى ، وأيام الأسبوع وغيرها ..

والمطالع لكتاب (نوستر اداموس) سيجد الكثير من الغموض والحيرة ، بالنسبة لتنبؤاته يصعب تفسيرها ، وربما تتعلق بمستقبليات لم تحدث بعد ، ولكنه سيجد أيضًا ما يثير دهشته وذهوله حتى النخاع ، وخاصة عندما يُطالع تنبؤات حدثت بالفعل ، فى الفترة ما بين ظهور (قرون) ، ووقتنا الحالى ..

وفى بعض الأحيان ، يكون تعرُف زمن النبوءة ممكنًا ، عندما يربطها (نوستر اداموس) بحالة فلكية خاصة ، لايمكن أن تحدث إلافى ظروف وحقبات بعينها ، ولعل أشهر تنبؤاته القريبة ـ نسبة إلى زمنه ـ تلك الخاصة بالثورة الفرنسية ، والتى حدد حدوثها بالأعوام الاثنى عشر الأخيرة ، من القرن الثامن عشر ، وقال فيها :

من العامة المستعبدة حماسة ومطالب وأغنيات

فيما يوضع الأمراء والملوك أسرى فى السجون

هؤلاء يستقبلهم حمقى دون رءوس فى المستقبل

باعتبارهم مصلون مقدسون

وفى الزمن الذى حدده (١٧٨٩م) ، اندلعت الثورة الفرنسية ، وارتفعت أغنياتها وحماستها ، وطالب الكل بمحاكمة العهد القديم ، ووضع الملوك والأمراء فى السجون ، ثم قطعت رءوسهم ، على يد المتآمرين ، الذين حظوا بالمصير ذاته فيما بعد ..

نبوءة مدهشة ..

ولكن تلك الخاصة بأسرة (كيندى) كانت مدهشة أكثر ..

بل مذهلة ..

وبكل المقاييس .

* * *

فى بداية القرن الأوّل من كتابة (قرون) ، شرح لنا (ميشيل دى نوستر اداموس) كيف حصل على تنبؤاته ، فيقول فى رباعيته الأولى :

أجلس وحيدًا فى الليل ، فى دراسة متكتمة

إنها موضوعة على حامل نحاسى ثلاثى القوائم

شعلة واهية تندفع من قلب الفراغ

وترى ما ينبغى أن تؤمن به ؛ لأنه باطل .

تناقض مدهش ، يبدأ به فلكى وعالم كتابًا ، أصبح الأشهر عبر القرون ، فهو يصف لنا كيف يجلس فى خلوة ، مع شعلة على حامل ثلاثى نحاسى ، ثم يرى ما يرى ..

وبعدها ينفى عن نفسه معرفته بالمستقبل ، باعتباره باطلاً ، لا ينبغى له أن يصدّقه ..

أسلوب ذكى لتحاشى الاتهـام بالسحر والهرطقة ، فلو أنـه يقصد بالفعل ما يقول ، لما كتب الكتـاب ونشره ؛ فأصغر عالم فى الوجود لا يمكن أن يفعل هذا ..

ومـا يتحدَّث عنـه (نوسـتر ادامـوس) أشـبه بأسـاليب المتصوفين القدامى .. الخلوة ، والضوء الخافت ، والخشوع، ثم الرؤيا !!

ولا أحد يدرى كيف تأتى هذه الرؤيا ، ولكن بعض الدارسين يؤكدون أنها كانت تأتيه فى صورة سمعية بصرية ، يعجز هو نفسـه عن فهمهـا واستيعابها ، فيكتفى بوصفها كما رآها وسمعها ..

ودليلهم على هذا تلك الرباعية ، التى وصف فيها معركـة جوية ، فى زمن لم يعرف حتى الطائرات الورقية ، والتى قال فيها :

سيعتقدون أنهم رأوا الشمس فى قلب الليل

عندما يرون الرجل الشبيه بالخنزير

- ضوضاء وصرخات ومعارك تدور فى السماء

وستسمع المخلوقات الخنزيرية وهى تتحدث .

وقبل أن تنفر من الوصف ، لارتباطه بالخنزير ، طالع صورة لطيار مقاتل ، وهو يرتدى قناعة ، وتخيل مـا يمكن أن يصف به رجل من القرن السادس عشر هذا !!

ولنتوقف لحظـة عند الضوضـاء والصرخات والمعـارك والأضواء فى السماء ، ونقارن هذا كله بصوت الانفجارات والصواريخ ، ووهجهـا ، وصفير القنابل التى تهبط علـى الأرض ، ثم نربط كل هذا بأصوات الطيارين ، عبر اتصالاتهم اللاسلكية ..

دعنا نلتقـط مشهدًا من أحد أفلام الحروب ، ونعرضـه على شخص بدائى ، ولنر كيف يصفه !!

إنهـا عبقريـة حقيقيـة أن يصـف شـخص مـن زمـن (نوستر اداموس) هذا المشهد المعقد ، بل والمستحيل فـى زمنه وأيامه !

ولقد استخدم (نوستر اداموس) نفس الوصف البدائى ، لتفسير أمور تأتى بعده بمئات السنين ، وهو يتنبأ بمصرع الأخوين (كينـدى) ، فى القرن العشرين ، عندما تم اغتيـال (جون كنيدى) فى (دالاس) ، فـى وضـح النهـار ، برصاصـة فى رأسه ، ثم اغتيل شقيقه (روبرت) بعده بخمس سنوات ،

وهو يحتفل بانتصاره فى الانتخابات الرئاسية الأولية ، وما أعقب الحادثين من مشكلات عالمية ، عانت منها (إنجلترا) و(فرنسا) و(إيطاليا) ..

وفى هذا الشأن ، جاءت رباعية (نوستراداموس) تقول :

الرجل العظيم تصرعه صاعقة فى وضح النهار

فعلة أثيمة ، تنبأ بها الملتمس

وبعدها سيخر الآخر صريعًا فى الليل

صراع فى ريمس ، ولندن ، ووباء فى توسكانيا .

أمر واضح إلى حد مدهش ، ويتجاوز حدود المصادفات إلى ما هو أكثر عمقًا ..

تمامًا مثل تلك النبوءة ، التى تحدثت عن ضرب (هيروشيما) و(ناجازاكى) ، والتى حددت زمنها فلكيًا بنهايات النصف الأول من القرن العشرين ، والتى تقول :

قرب الميناء ، وفى مدينتين كبيرتين

كارثتان تحدثان ، لم ير مثيل لهما قط

جوع ، طاعون ، وأناس يطرحون خارجًا بسيف الحرب

بكاء وضراعة لله العظيم ؛ للحصول على مساعدات ..

والمدينتان تقعان على البحر ، وكلاهما تعرضت لضرب بالقنبلة الذرية ، فى كارثتين لم يعرف التاريخ لهولهما مثيلاً ، فى عام ١٩٤٥م .

مرة أخرى نبوءة مدهشة قوية إلى حد رهيب مثير ..

وتنبؤات (نوستر اداموس) ليست دقيقة زمنية كما يشيع البعض ، وإنما تتراوح نسبة الإزاحة فيها إلى ما يقرب من عشر سنوات ، سلبًا أو إيجابًا ، ولكن حتى هذا يضعها فى قائمة المدهشات ، وخاصة عندما تشير فى وضوح إلى أمور لم يكن من الممكن التنبؤ بها سياسيًا أو منطقيًا ، حتى فى الفترات الملاصقة لها ، مثل نبوءته عن قيام الثورة فى (إيران) ، وقوة تأثير (الخومينى) عليها ، من منفاه فى (فرنسا) ، فحتى القيادات السياسية والعسكرية ، فى العالم أجمع ، لم تتوقع أو تتخيل إمكانية نجاح هذا ، حتى لحظة حدوثه بالفعل ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد ذكره (نوستر اداموس) فى كتابه ، قبل خمسة قرون ، وهو يقول فى رباعيته :

المطر والحرب والمجاعة لن تتوقف ، فى بلاد فارس

إيمان عظيم جدًا سيخدع الملك

الأعمال التى تعد فى (فرنسا) ستنتهى هناك

علامة خفية لشخص ما ، لكى يتعامل برحمة

إشارة واضحة لما حدث، على الرغم من غموض الرباعية ككل رباعيات (قرون) التى تحوى دومًا شيئًا من الحيرة، فى شطرها الأخير بالتحديد ..

وغموض رباعيات (نوستر اداموس) ليس المشكلة الوحيدة، التى تواجه أى دارس لكتابه ونبوءاته، فالمشكلة الأكبر هى أن تجد نسخة صالحة للدراسة، والمقصود هنا أن تكون نسخة صحيحة، غير مزورة أو محورة، فلأن للتنبؤ تأثيرًا هائلاً على الناس، تم استخدام (نوستر اداموس) وكتابه كوسيلة دعائية للحرب النفسية، منذ أوائل عام ١٦٤٩م، عندما قام خصوم الكاردينال (مازاران) بنشر طبعة من (قرون)، أضافوا إليها رباعيتين ضده، للحد من نفوذه القوى فى البلاط الفرنسى ..

وفى عصر (نابليون) أيضًا تم تزوير الرباعيات، بإضافة رباعيات زائفة، أطلق عليها اسم (تنبؤات أوليفاريس)، وبعدها ظهرت (تنبؤات أورفال)، وكلتاهما كتابات زائفة، نسبت دون حق للأشهر (ميشيل دى نوستر اداموس) ..

وخلال الحرب العالمية الثانية وحدها ظهرت أكثر من خمس طبعات غير صحيحة من كتاب (نوستر اداموس)،

والمعنى هنا هو أنها قد اقتصرت على ما يفيد أحد الطرفين، مع تجاهل باقى الرباعيات تمامًا ..

لذا، فكل دارس للرجل وكتابه، يسعى للبحث عن أقدم نسخة ممكنة، ويقارن محتواها بعدة طبعات أخرى، حتى يتيقن أولاً من أنه أمام نسخة حقيقية من كتاب (قرون)، قبل أن يبدأ عمله ..

وهذه الدراسة نفسها احتاجت إلى جهد مضن، لقراءة خمس طبعات من كتاب (نوستر اداموس)، بثلاث لغات مختلفة، قبل البدء فى كتابتها ..

والواقع أن هذا لم يكن أمرًا مرهقًا، بقدر ما كان ممتعًا، وخاصة عندما استقر الأمر على كتاب قديم نسبيًا، تعود طبعاته إلى منتصف السبعينات، لباحث بذل جهدًا حقيقيًا فى التحقق من كل رباعية قبل نشرها ..

والممتع هنا أن تطالع طبعة من منتصف السبعينات، ثم تجد فيها إشارات واضحة لأحداث جرت بعد طباعتها بعدة سنوات، وتقرأ محاولات الباحث المستميتة لتفسيرها، باعتبارها تنبؤات مستقبلية، بالنسبة لزمن بحثه ..

ورباعيات (نوستراداموس) ليست كلها محيرة، ففى بعضها أسماء وإشارات واضحة للغاية، كتلك الرباعية التى

أوردناها فى القسم الأول ، والتى تحدثت عـن (هتـلر) أو (هسلر) ، أو (هستر) ، كما ورد فى طبعات بلغات مختلفة ..

وهنـاك رباعيات مبهرة ، لأنهـا تحدثت عن أشـخاص بعينهم ، وبأسمائهم أيضًا ، كتلك الخاصة بلويس باستير ، مكتشف وجود الجراثيم ، والتى تقول :

يكتشف المفقود ، المختبئ منذ عدة قرون ..

سيحتفل بباستير كرمز لعظمة الإله

يحدث هذا عندما يتم القمر دورته العظمى

ولكنه ، ونتيجة لشائعات أخرى ، ستتلوث سمعته .

هكذا ، ومباشرة يذكر اسم (باستير) ، الذى جـاء بعده بأكثر من ثلاثة قرون ، والذى تحول إلى معجزة علمية ، عندما كشف وجـود الجراثيم ، ثم لم يلبث هذا أن أثـار غيـرة وغضب وحفيظـة منافسيه ؛ نظرًا لاعتبار كشفه - عندئذ - أهم الكشوف فى عالم الطب ، واعتباره الزعيم المعترف به لأكبر حركة علمية كيميائية ، وتأسيس معهده الشهير ، فهاجموا أسلوبه ، ومحاولاته لإنتاج لقاح مضاد لداء الكلب ، مما لوث سمعته فى أواخر أيامه ..

وفى رباعية أخرى ، أشار إلى (موسولينى) ، المعروف فى التاريخ باسم (الدوتشى) ، وإلى خلافاته مـع الملك ، ومعاداته للفاتيكان فى ذروة عهد ديكتاتوريته ، علـى نحو واضح للغاية ، قائلاً :

سوف يعثر الملك على ما يرغب فيه بشدة

حينما يؤخذ الأسقف بالظلم

الرد سيغضب الدوتشى بشدة

وسيقتل عدة أشخاص فى ميلانو

ولكن أقـوى الرباعيـات الواضـحة والمباشرة ، هى تلك التى أشارت إلى الجنرال (فرانكو) وأحداث (إسبانيا) ..

فهى مدهشة ومثيرة ..

بشدة .

* * *

من الواضح أن (نوستر اداموس) يتوقف طويلاً ، أمام بعض الشخصيات والأحداث ، التـى كـانت لهـا تـأثيرات واضحـة ، فى مسار التاريخ ..

فعبر كتابه الأشهر (قرون)، نجد العديد من الرباعيات، التى تتحدث عن (هتلر) و(نابليون)، وعن الحرب العالمية الثانية، وحرب الخليج، وغيرها من الأحداث الجسام ..

وفى بعض رباعياته، وبالذات تلك التى تغفل تحديد الزمن الفلكى لحدوثها، نجد أنفسنا فى حيرة، ونحن نتساءل عما كان يعنيه، أو عمن يتحدث بالضبط ..

وأكبر مثال على هذا، هو الرباعية التالية :

من أعمق جزء فى أوروبا الغربية

سيولد طفل من أسرة فقيرة

كلامه سيفتن الكثير من الشعوب

وستتعاظم سمعته أكثر، فى مملكة الشرق

فلقد توقف الباحثون طويلاً أمام هذه الرباعية، التى يمكن أن تنطبق على مرحلتين تاريخيتين، وشخصيتين عالميتين، يفصل بينهما قرن كامل من الزمان ..

(نابليون بونابرت)، و (أدولف هتلر) ..

كلا الرجلين جاء من أصل وضيع، وعائلة فقيرة،

و (النمسا) تعد عميقة بالنسبة لحدود (أوروبا)، فى حين يمكن ترجمة الكلمة كلها إلى دنية، فتطبق تمامًا على (كورسيكا)، مسقط رأس (نابليون) ..

والرجلان امتلكا موهبة الخطابة، وكانت لهما سمعة كبيرة فى الشرق، أولهما عبر حملته الشهيرة، والثانى من خلال خطبه الملتهبة، ووسائل الإعلام، وكراهية شعوب الشرق للاحتلال الإنجليزى والفرنسى، وانتظارهم للنجاة منهما على يد جيوش (ألمانيا) النازية ..

ولقد وجد كل اتجاه مؤيديه، ومازال الفريقان يختلفان، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

ولكن بالنسبة للرباعية الخاصة بالجنرال (فرانكو)، فلم يحدث أى اختلاف على الإطلاق، إذ جاءت الرباعية واضحة أكثر مما ينبغى، وهى تقول :

سوف يأتى (فرانكو) إلى الجمعية من كاستيل

السفراء سيرفضون، ويتسببون فى انقسام

مؤيدو (ريفيرا) سيحتشدون

وسيحرم الرجل العظيم من دخول الخليج ..

الرباعية لم تذكر اسم (فرانكو) فحسب ، وهى تشير إلى عودته من (المغرب) بعد نفيه فيها ، ومنعه من عبور البحر إلى (إسبانيا) ، والخلاف الشديد بعد عودة حزبه إلى السلطة ، وإنما ذكرت أيضًا اسم عدوه الديكتاتور (بريمودى ريفيرا) أيضًا ..

رباعية واحدة ذكرت اسمين فى وضوح ، وربطتهما ببعضهما ، على نحو يتجاوز كل حدود واحتمالات المصادفات ، إلى ما هو أكثر خطورة من هذا ..

وهذا يعيدنا إلى الرفض التلقائى والعنيف لفكرة الرؤيا والتنبؤات المستقبلية ، على الرغم من أنه لايوجد سند قوى يمنع احتمال حدوث هذا ، بل على العكس تمامًا ، ففى سورة (يوسف) نجد أن مسجونًا قد شاهد رؤيا تحدد مصيره وكذلك رفيقه ، ونجد الفرعون يتنبأ بالسنوات العجاف ..

كل منهم لم يكن مؤمنًا ، وربما كانوا وثنيين أيضًا ، ولكن الله (سبحانه وتعالى) جعلهم يرون ما سيحدث مستقبلاً ، وإن عجزوا عن تفسير ما رأوه ..

والعلم يؤمن بوجود هذه الهبة العقلية ، ويطلق عليها اسم (برى كوجنيشن) (Pre - Cognetion) ، أو (رؤية مالم يحدث بعد) ، ولقد أجريت دراسات عديدة ، معظمها فى الاتحاد السوفيتى ؛ لفهم هذه الهبة ، وقوانين حدوثها ، وهناك مئات الكتب عنها ، وهى كلّية هبة ، تمنح للبشر دون تمييز للجنس أو النوع أو الديانة ، تمامًا كموهبة الرسم ، أو التمثيل ، أو أية مواهب أخرى ..

حتى فى بعض الحالات العادية ، وربما حولنا أيضًا ، نجد ما يمكنه رؤية المستقبل ، فى بعض الحالات المحدودة ، والتى يطلق عليها العامة عبارة (كشفت عنه الحجب) ، ولكننا لا نعتبرها قاعدة أبدًا ..

أنا شخصيًا لدىّ تجربة فى هذا الشأن ، مع والد زوجتى ، الذى عانى مرضًا عضالاً لفترة طويلة ، ثم أصابته حالة (انكشاف الحجب) هذه قبيل وفاته بأيام ، فراح يصف ، وبمنتهى الدقة ، أمورًا وأحداثًا حدثت بعد وصفه لها بأيام ..

وبنفس الدقة والتفاصيل ..

هناك إذن كيميائية خاصة ، أحدثها المرض الطويل فى

الجسد ، جعلت العقل ينجلى ، ويمتلك قدرة مدهشة على اختراق الزمن ، وكشف المستقبل ، على نحو قد تساعده قدراته على وصفه ، أو تفسيره ، أو مجرد الإشارة إليه ..

وما دام هذا يحدث فى ظروف خاصة ، فالمنطق العلمى يقول : إن القدرة كامنة فى مكان ما من المخ ، وكل ما تحتاج إليه هو عامل قوى ، لتحفيزها وإطلاقها ..

ونحن لا ندرى ماذا أصاب (نوستر اداموس) بالضبط ..

لقد كانت حياته طويلة حافلة ، على نحو يصعب تسجيله واستيعابه كله ، ثم إنه قد واجه مرض الطاعون ، وتعامل مع مرضاه آلاف المرات ، دون أن يصاب به أبدًا .. فماذا لو أن هذا قد غير كيماويات جسده على نحو ما ؟!

وماذا لو أنه قد ولد بتلك الهبة الربانية ، التى صقلتها دراساته للرياضيات ، وعلوم الفلك ؟!

أمور عديدة ، ينبغى أن نستوعبها وندركها ، قبل أن نبادر بمهاجمة كتابه ، أو حتى تأييده ..

المهم أن نلغى من أسلوبنا وتفكيرنا كل الحساسيات ، والتعنتات ، والعصبيات ، والأحكام المسبقة ، وما دام التنبؤ بالمستقبليات

قد صار علمًا ، فنتعامل مع تنبؤات (نوستر اداموس) باعتبارها نظرية علمية ، نبحث صحتها أو زيفها ..

وفى كل التجارب العلمية والمعملية ، لا يمكننا أن نحصل أبدًا على نتيجة دقيقة مائة فى المائة ، لذا فقد اعتبر العلماء أن الوصول إلى نتيجة تبلغ الخمسة والسبعين فى المائة ، يعنى الإيجاب ، فى معظم الأحوال ..

والباحثون والدارسون لتنبؤات (نوستر اداموس) يشيرون إلى أن نسبة النجاح ، فى رباعياته القديمة ، أو التى تحققت أحداثها بالفعل ، تبلغ النسبة المقبولة علميًّا ، بحيث يصعب اعتبار الأمر مجرد مصادفة ..

فالمصادفات لا يتكرر حدوثها فى المسرح الواحد أبدًا ..

وعندما يتحدث (نوستراداموس) عن معركة (واترلو) ، التى حدثت بعد ثلاثة أشهر تقريبًا ، من عودة (نابليون) من جزيرة (ألبا) ، وعن التحالف بين (بلوخر) ، الذى كان يرمز إليه باسم (الخنزير الروسى البرى) ، و(جروتشى) الأسد البريطانى ، والذى هزمه (نابليون) ، الذى اتخذ العقاب رمزًا له ، نجده يقول فى رباعيته :

فى الشهر الثالث ، وعند شروق الشمس

يلتقى الخنزير البرى والأسد ، فى ساحة المعركة

وعندما يرفع الأسد المرهق بصره إلى السماء

يرى عقابًا يدور حول الشمس ..

وعلى الرغم من أن الرباعية لم تذكر أية أسماء ، إلا أنها ذكرت الرموز الخاصة بكل المتحاربين ، دون خطأ واحد ، مما يبعد الأمر عن أى احتمال لكونه مجرد مصادفة عشوائية ..

وككل الأمور والظواهر الخارقة للمألوف ، وجد (نوستر اداموس) فريقًا شديد الحماسة لتنبؤاته ، وآخر شديد الإنكار والاستنكار لها ، ولكن من المؤكد أنه قد جذب اهتمام وانتباه الفريقين ، طوال خمسة قرون ..

وبالذات مع حادثة برجى مركز التجارة العالمى ..

ففى طبعة الكتاب التى بين يدى ، والتى تعود إلى السبعينات ، تحدث الباحث عن عدد من تنبؤات (نوستر اداموس) المستقبلية ـ فى ذلك الحين ـ وعلى رأسها ضربة (نيويورك) ، التى ستتسبب فى إشعال الحرب العالمية الثالثة ..

وطوال البحث ، حاول الباحث أن يجد تفسيرًا لتلك التنبؤات ، التى لم يختلف أى باحث آخر فى تفسيرها .. فى أساسياتها على الأقل ..

فبالنسبة لكل الباحثين ، تم الاتفاق على أن الحديث عن المدينة الجديدة يشير دومًا إلى (نيويورك) ، باعتبار أن اسمها مشتق من مقاطعة (يورك) القديمة ، ثم إنها تقع فى عالم لم يكن له وجود ، فى زمن (نوستر اداموس) ..

ومن هذا المنطلق ، بدت لهم نبوءات الرجل ، الخاصة بالمدينة الجديدة عجيبة ..

ومخيفة أيضًا ..

ولكنهم حاروا فى تفسيرها ..

بعضهم افترض أنها تتحدث عن كارثة طبيعية ، والبعض الآخر تمادى فى تفكيره وخياله ، فتصور أنها تشير إلى غزو فضائى ، والبعض الثالث اعتبرها حربًا نووية ..

ولكن المدهش أنهم توقفوا جميعًا عند كلمة فى رباعية تقول :

نار تزلزل الأرض ، فى مركز الأرض

هزات قوية تصيب المدينة الجديدة ..

صخرتان عظيمتان تنهاران ..

ثم تضفى أريثوازا لونًا أحمر على نهر جديد

فمنذ أكثر من عشرين عامًا ، تساءل الباحثون ، لماذا استخدم (نوستر اداموس) كلمة (برج) (Tour) ، عندما وصف الصخرتين العظيمتين ، فى رباعيته هذه ؟!

والمدهش أننا نعرف الآن لماذا فعل هذا ، عندما قال : إن برجين عظيمين سينهاران !!

فلقد انهارا بالفعل ، فى مركز التجارة العالمى ، فى الحادى عشر من سبتيمبر ٢٠٠١م..

ولكنها ليست الرباعية الوحيدة حول أحداث سبتمبر ، فى الولايات المتحدة الأمريكية .. هناك رباعيات أكثر إثارة .. بكثير .

★ ★ ★

مع سقوط برجى مركز التجارة العالمى ، وارتطام الطائرتين المدنيتين به ، فى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م ، استعاد العالم كله تنبؤات الفلكى الفرنسى الأشهر (ميشيل دى نوستر اداموس) ، والذى أشار إلى هذه الضربة منذ خمسة قرون ، فى كتابه الأكثر شهرة (قرون) ..

وفى عشرات الصحف والمجلات العربية ، قرأنا رباعية نسبت إلى (نوستر اداموس) ، وتقول :

ملك الرعب العظيم يهبط على المدينة الجديدة ..

نار ودخان وصراخ ودموع وانهيارات

تسقط القلعة ، وينهار التوءمان

وتشتعل الحروب فى كل مكان .

وعندما حصلت على نسخة مؤكدة من كتب (نوستر اداموس) الشهير ، والأبحاث الملحقة به ، لعمل هذه الدراسة ، كان أول ما بحثت عنه هو هذه الرباعية ، التى تمادى البعض ، فأضاف إليها التاريخ بالشهر والسنة ..

ولكننى لم أعثر عليها قط ..

قرأت الكتاب مرتين ، وثلاثًا ، دون أدنى جدوى ..

الرباعية الوحيدة ، التى ذكرت اسم (ملك الرعب) ، هى تلك التى تقول :

فى عام ١٩٩٩ وسبعة أشهر ..

سوف يأتى ملك الرعب من السماء

وسيعود إلى الحياة ملك المغول العظيم

سيحكم قبل الحرب وبعدها فى سعادة ..

ولو أننا طبقنا قاعدة الإزاحة ، الخاصة بما يذكره (نوستر اداموس) من تواريخ ، فهذا يعنى أن ما أشار إليه يمكن أن يحدث خلال عشر سنوات ، قبل أو بعد التاريخ المذكور ..

والإشارة إلى المغول هنا تلقى على الصينيين تبعة إشعال الحرب ، فى نهايات القرن العشرين ، أو بدايات القرن الحادى والعشرين ..

ولكن هناك تنبؤات أكثر دقة ، بشأن ما أصاب (نيويورك) ، منها مثلاً تلك التى تقول :

حريق هائل يحدث ، بعد شروق الشمس ..

الضوضاء والضياء ينتشران نحو الشمال

الموت والصرخات فى كل مكان من الكرة

وهناك المزيد ، مع الأسلحة ، والنار ، والمجاعة .

راجع معى هنا أن الضربة قد حدثت فى الصباح الباكر ، بعد شروق الشمس ، وأن الدخان ، الذى رأيناه جميعًا ، فى كل مكان فى الكرة الأرضية ، كان يتجه وينتشر نحو الشمال ،

والقتلى من كل الجنسيات ، والعالم كله رأى ما حدث ، وصرخ وبكى ، ثم جاءت الحرب ، بالأسلحة والنار والمجاعة ..

كل الباحثين ، فى كل العصور ، اعتبروا هذه الرباعية إشارة إلى كارثة تحدث فى (نيويورك) ، وحددوا زمنها فلكيًّا ببدايات القرن الحادى والعشرين ..

ثم إنه هناك رباعية أخرى ، تقول :

السماء تحترق ، بين الأربعين والخمسة وأربعين درجة

الحريق فى المدينة العظيمة الجديدة

اللهب الكبير ينتشر إلى أعلى مباشرة

والكل يسعى للحصول على دليل من النورمانديين .

لاحظ أن (نيويورك) تقع بين خطى عرض ٤٠ ، ٤٥ على الخرائط ، والنيران اشتعلت فى برجى التجارة العالميين ، وانتشرت إلى أعلى ، وبعد انهيارهما راح الأمريكيون يبحثون عن دليل لإدانة (أسامة بن لادن) ، الذى اتجهت إليه أصابع اتهامهم منذ اللحظة الأولى ..

والعجيب أنهم ، حتى فى هذا استعانوا برباعيتين من رباعيات (نوستر اداموس) ؛ لتأكيد اتهامهم ، إحداهما تقول :

يحافظ الرجل النحيف على الحكم تسع سنوات ..

ثم يقع فى تعطش دموى رهيب

أمة عظيمة تموت من أجله ، دون إيمان أو قانون

ثم يقتل على يد رجل أفضل منه

ومن منظورهم ، رأى الأمريكيون أن النحيف هو (أسامة بن لادن) ، والأمة التى ستموت من أجله دون طائل هى الأمة الإسلامية، أما الرجل الأفضل منه فهو الرئيس الأمريكى بالطبع ..

هل يمكن أن يقنعك هذا التفسير ؟!

أما الرباعية الثانية ، والتى يتصورون أنها تشير إلى حربهم طويلة الأمد ، والضربات الجوية العنيفة ، وصمود (أسامة بن لادن) وجيشه ، والدماء التى ستسيل أنهارًا ، فهى تلك التى تقول :

فى ظل السلطة الصارخة للشيخ الملتحى

توضع قواعد العقاب الصارم

الشخص العظيم يثابر إلى حد بعيد

ضوضاء الأسلحة فى السماء ، والبحر الليغورى أحمر

وبالنسبة لزمن كتابة هذه الرباعيات ، كان البحر الليغورى هو الجزء الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ..

ولكن لاحظ هنا الحديث عن ضوضاء الأسلحة فى السماء ، والذى يشير إليه (نوستر اداموس) فى عدة مواضع من رباعياته ، كلما أراد وصف معركة جوية ..

والأمريكيون يميلون بشدة إلى تصديق الرباعيتين ، ما دام الانتصار سيتحقق لهم فيهما فى النهاية ، ولكن الرعب يزلزل كيانهم حتى النخاع من رباعية أخرى مخيفة ، تقول فى وضوح :

حديقة العالم ، قرب المدينة الجديدة ..

فى طريق الجبال المجوفة .

يتم الاستيلاء عليها وتقحم فى الصهاريج .

المدينة تجبر على شرب ماء مسمم بالكبريت .

فمدينة (نيويورك) تعتمد فى ماء الشرب على المياه الجوفية الجبلية ، والرباعية هنا تشير إلى عملية لتسميم هذه المياه ، لقتل المدينة كلها ..

إنها الحرب الكيماوية أو البيولوجية ، التى أصبح كل مخلوق فى (أمريكا) يرتجف منها ، وخاصة بعد ظهور حالات إصابة بالجمرة الخبيثة بالفعل ..

و(نوستر اداموس) يشير أيضًا إلى حرب عنيفة ، تحدث فى بدايات القرن الحادى والعشرين ، ولقد حدد هذا عندما يقترن المشترى ، ورمزه الصولجان ، بالمريخ ، وهذا سيحدث - فلكيًا - فى الحادى والعشرين من يونيو ٢٠٠٢م ..

وفى رباعيته ، يقول الرجل :

المريخ والصولجان سيقترنان ..
حرب مدمرة تحت برج السرطان
بعدها بفترة قصيرة يأتى ملك جديد
وسيجلب السلام للأرض لفترة طويلة

إذن ، فهو يتوقع اندلاع الحرب فى يونيو ٢٠٠٢ م ، ثم يعقبها عهد من السلام ..

والعجيب أن هذا ما يتوقعه العالم أجمع ، بعد أن بدأت (أمريكا) حربها مع الأفغان بالفعل ..

أن تتطور الأمور ، وتحدث المشكلات ، على الحدود الإيرانية ، والروسية ، والصينية ، مما يؤدى إلى اشتعال الموقف أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

ولكن ليس بالضرورة أن نتصور أن كل ما يقوله أو يتنبأ به (نوستر اداموس) قابل للحدوث ، فكما قلنا من قبل ، نسبة النجاح لا ينبغى أن تصل إلى مائة فى المائة أبدًا ..

يكفينا سبعون أو ثمانون فى المائة ..

ولقد تجاوز (ميشيل دى نوستر اداموس) هذه النسبة بكثير ..

وذات يوم ، وفى أيام شبابه الأولى ، أراد أحد المتشككين أن يختبر قدراته ، فدعاه إلى منزله ، واصطحبه إلى حظائره ليريه خنزيرين ، أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وسأله : أيهما سيتناولونه على العشاء ، فأخبره (ميشيل) أنهم سيتناولون الأسود ؛ لأن الأبيض سيلتهمه ذئب ..

وهنا أمر الرجل بذبح الخنزير الأبيض ، وتقديمه على العشاء ، وإغلاق كل الأبواب ؛ لمنع أى ذئب من الدخول ..

ولكن ذئبًا مهجنًا ، يحيا فى كنف الرجل ، اختطف الخنزير الأبيض قبل طهيه ، واختفى به ، فلم يجد الطاهى أمامه سوى ذبح الأسود ، وتقديمه على العشاء ..

وكان هذا انتصارًا للفلكى (نوستر اداموس) ، الذى لم يبال أبدًا بما يتركه خلفه من انبهار ، ولم يسع قط للشهرة أو الثراء ، وإن قضى أيامه الأخيرة يراجع الطالع ، ويقرأ النجوم لأصدقاء وصديقات زوجته ..

أما آخر نبوءاته ، فقد اختصت به شخصيًا ، إذ تفاقمت إصابته بمرض النقرس ، وتحولت إلى الاستسقاء ، ورقد

تمامًا فى فراشه ، وذات يوم ، وبينما طبيبه يفحصه ، ابتسم (نوستر اداموس) فى شحوب ، وأخبره أنها آخر مرة يراه فيها ، وأن عينه لن تقعا عليه بعدها قط ، ولكن الطبيب طمأنه بأن حالته تتحسن ، ثم ضحك وهو يضيف أنه ـ وعلى أسوأ الفروض ـ سيراه جثة هامدة ..

ولكن هذا لم يحدث قط ..

لقد مات (ميشيل دى نوستر اداموس) فى فراشه فى هدوء ، فى الأول من يوليو عام ١٥٦٦م ، فى حين أصيب طبيبه فى الليلة نفسها بالتواء فى كاحله ، فلم يلق عليه نظرة واحدة ، حتى تم دفنه ..

وغادر (نوستر اداموس) العالم ، تاركًا خلفه تاريخًا حافلاً ، وكتابًا يحوى كومة من الرباعيات ، ما زالت تصيبنا بالدهشة والانبهار ، وما زالت تواصل نجاحها وقوتها ، عبر قرون ، وقرون ، باعتباره رجلاً فريدًا ..

رجل رأى الغد ..

بعقله .

* * *

مقـــدِّمـة

هذه الخواطر هى سيرة ذاتية ..

وعمل أدبى ..

جزء من هذا ، وشىء من ذاك ..

إنها ذكرياتٍ لفترة من فترات حياتى ، ربما كان لها الفضل ، بعد اللّه (سبحانه وتعالى) ، فيما أصبحت عليه الآن ..

فقد بدأت تلك الفترة طبيبًا عاديًا ، من مئات الأطباء ، الذين حصلوا على شهادتهم الجامعية ، وأنهوا فترة التدريب الإجبارى (الامتياز) ، ثم انتقلوا لقضاء فترة التكليف الإجبارية ..

وانتهت وأنا أضع قدمىَ على أوَّل سلمة فى مشوار طويل ، كان ولا يزال مصدر متعتى الوحيد ..

الأدب .. والقلم ..

والأوراق ..

ولقد تمنيت كثيرًا أن أكتب هذه الذكريات والمذكرات ..

وتردَّدت أكثر فى كتابتها ..

ربما لأننى خشيت ألا يتقبَّل القارئ فكرة أن يضيع الكاتب (أى كاتب) بعض الأوراق ، فى الحديث عن نفسه ..

أو لأنه ليس من السهل أن يكتب المرء عن نفسه ..

وحياته ..

وذكرياته ..

ولكن شيئًا ما ، لست أدرى كنهه بالضبط ، جعلنى أحسم تردُّدى هذا .

شىء ما ، جعلنى أعجز عن مقاومة رغبتى فى كتابة هذه المذكرات ..

ربمَا لأنها أحداث مرّت عليها ثمان عشرة سنةَ أو أكثر ، وخشيت أن تذوب فى بحر الذاكرة ، فتفقدنى وأفقدها ..

أو ربما لأن المرء يحتاج أحيانًا إلى التحدُّث عن ذكرياته ..

ربما .

المهم أن هذه الأوراق بين يديكم الآن ..

اعتبروها مجرَّد عمل أدبى ..

وهذا سيكفينى ..

تمامًا ..

د. نبيل فاروق

* * *

٧ ـ الباشا العجل ..

بعض طوائف الهندوس تقدّس البقر !!

من المؤكَّد أن معظمكم يعرف هذه الحقيقـة ، ويعرف أن أصحاب تلك الطائفة لا يأكلون لحـم البقر ، ولا يستخدمون الأبقار فى الزراعة ، ولا يعترضون طريقها ، أو يجبرونهـا على الابتعاد عن طريقهم ..

بل ويحترمونها أيضًا أشد الاحترام ..

ولقد قرأت الكثير والكثير عن هذا الأمر ، واستنكرته ، ورفضتـه ، واستبعدت أن يقدم إنسان عاقل على تقديس حيوان ، أيًا كانت نوعيته ..

حتى رأيت عجل (البوهى) ..

ولقد كان لقائى الأوَّل بسعادة عجل (البَوَهى) هذا دراميًا على نحو مدهش ، يصلـح كبدايـة لفيلم بوليسى ، من إخـراج (إسماعيل ياسين) ، وبطولة العسكرى (رجب) والشاويش (عطية) ..

فذات يوم ، كنت أؤدِّى عملى فى الوحدة الصحية ، والمرضى

يدخلون إلى العيادة بنظام كالمعتاد ، عندما سمعت صوت خوار ضخم ، ورأيت رأس ديناصور صعيدى يدخل إلى العيادة ، وبه عينان ضخمتان ، تتطلّعان إلىَّ فى بلادة وفضول ..

فى البداية ، تصوَّرت أنه حلم ، أو كابوس اصطبغ بصبغة الوجه القبلى ، ليقتحم منـامى دون استئذان ، وفكَّرت فى استدعاء أحد الخفراء ؛ ليهوى على رأسى بشومته ؛ حتـى أتـأكَّد من أننـى مستيقظ ، ولكننـى خشيت أن يؤدى هـذا الإجراء إلى نومى للأبد ؛ لما يتميَّز به الأخوة الصعايدة من رقة ولطف ، لذا فقد هتفت مناديًا الديناصور الأكبر ..

احم .. أقصد كاتب الوحدة ، هاتفًا فى استنكار :

ـ ما هذا يا (حجاج) ؟!

مال رأس (حجـاج) إلى كتفه كالمعتـاد ، وهو يجيب فـى هدوء ، وكأنه يصف أمرًا عاديًا :

ـ إنه عجل (البَوَهى) .

هتفت :

ـ عجل من ؟!

أجابنى بوقار العارف :

- عجل (البوَهى) يادكتور .. ألا تعرف عجل (البوَهى) ؟!

سؤاله الأخير جعلنى أراجع أسماء كل أصدقائى ، وزملاء الدراسة ، وأعيان البلد وحتى مشاهير الأدب والفن والسياسة ، حتى تأكدت من أن هذا الباشا العجل لم يكن أحدهم أبدًا ، وحتى (البوَهى) هذا ، لم أسمع به من قبل قط ..

لذا ، فقد هتفت بكل صرامة :

- ولماذا يترك (البوَهى) هذا عجله طليقًا هكذا ؟! وكيف لم يمنعه أحد من الدخول ؟!

ولم أكد ألقى السؤالين ، حتى خُيِّل إلىَّ أننى أفضل ممثل هزلى فى (مصر) كلها ، أو أننى المنافس الأول لـ (عزب شو) ، و(لوريل وهاردى) ،و(شارلى شابلن) ، وحتى (توم وجيرى) ؛ فقد انفجر (حجاج) ضاحكًا ، حتى استلقى على قفاه ، كما تقول روايات (ألف ليلة وليلة) ..

ليس (حجاج) وحده ، ولكن عمال الوحدة الصحية ، والمرضى ، وحتى الحمير ..

كلهم انفجروا بالضحك على هذا الطبيب الجاهل الغبى ، الذى يدّعى الثقافة والعلم ، ثم لايعرف من هو عجل باشا (البوَهى) !!

ومرة أخرى ، رحت أراجع كل الأسماء فى ذهنى ، وأنا أتطلع إلى وجه العجل ، الذى ما زال يقف بكل تناحة ، ليتطلع إلىَّ بنفس البلادة والفضول ، وكأننى أنا الحالة الشاذة ، وليس هو ..

وعندما توقَّف الضحك ، بعد أسبوعين أو ثلاثة (لست أذكر بالتحديد) ، ارتدى السيِّد (حجاج) ثوب الوقار والحكمة ، وراح يشرح لى هوية ذلك العجل التنح الممل ، الذى ينسبونه إلى (البوَهى) ..

وفى البداية ، كان لابد أن يخبرنى من هو (البوَهى) هذا ..

فسيدنا (البوَهى) كما يطلق عليه أهل (أبو دياب شرق) ، هو رجل صالح ، لم أجد فى البلدة كلها من يعرف أصله أو فصله ، أو حتى نوعية صلاحه ، ولكن الكل يحكى عنه نفس الكرامات ، التى تسمعها عن أى رجل صالح آخر ، له أى مقام ، فى أى مكان فى (مصر) ، حتى (كفر بلضم) ..

المهم أنه رجل صالح والسلام ، على مسئولية أهل (أبو دياب شرق) ..

وهذا الرجل مات ، كما يموت كل الصالحين والطالحين ،

فأقام له بعضهم ضريحًا ، فوقه قبـة صغيرة ، وأطلق عليه اسم (مقام سيِّدى البَوَهى) ..

إلـى هنـا والأمر معتـاد ، ومكررَّ ، ويشبه كل الأمـور الأخرى غير المنطقيـة ، فـى عالمنـا العربـى كلـه ، مـن مشرقه إلى مغربه .

ولكن بعضهم تفتق ذهنـه عن وسيلة جديـدة ، لتثبيت كرامات سيِّدى (البَوَهى) ، فى عقول وأذهان الكل ، فقرَّر أنه فى كل عام ، ينبغى أن ينذر أحد أثرياء القرية عجـلاً ، من أفضل ما تنتجه ماشيته ، مـن أجل سيِّدنا (البَوَهى) ، وهذا العجل يُطلق عليه اسم (عجل البَوَهى) ..

وحتى هـذه النقطـة أيضًا ، تبـدو متشـابهة مع ما يحدث فى أماكن أخرى كثيرًا ..

ولكن تعامل الناس مع هذا العجل هو المستفز فَعلاً ..

فبعد لقائى العاطفى الأوَّل ، مع الباشا التنح .. أقصد الباشا العجل ، بـدأت أراه فـى كـل مكـان ، وأشـاهد تناحاتـه ، ورخامـاته على الكل ، وأشـاهد أيضًـا ـ وهو الأمر الـذى استفزنى بشدة ـ خضوع الكل الغريب والعجيب له ..

فالباشا (عجل البَوَهى) يجولّ بمنتهـى الحريـة ، كإمبراطور العجول ، فيتلف زرع هذا ، أو يقتحم منزل ذاك ، أو يضـع روثه المقدَّس فى طعام ثالث ..

كل هذا والناس سعيدة بمـا يفعلـه ، وابتسـامات الفرحـة تملأ وجوههم ؛ لأن العجل ، الذى أصبح ثـورًا ضخمًا عملاقًا ، دون أن يتنـازل عن لقبه العجلى ، يبارك مزارعهم ، وحقولهم ، ومنازلهم ، وطعامهم بتناحته المباركة ..

ولقد بلغت حالة الاستفزاز عندى مداها فى مرتين ..

المرة الأولـى عندمـا أردت السفر إلـى مدينـة (قنـا) ، التى كانت تبدو لى أيامها كأكثر بـلاد الأرض رقيًا وحضـارة ، مقـارنة بالوحـدة الصـحية وما حولهـا ، ثـم فوجئت بـأن العجل المبارك إياه يجلس فـى منتصف الطريـق ، بتناحتـه المقدَّسة المعهودة ، غير مبال بـأبواق السيارة أو أنوارهـا ، خاصـة وأن سـعادتـه يتميَّز بالقـدرة على التحـوّل إلى أعمـى وأصـم وأبـكم ، وعديـم الإحســاس أيضًا عنـد اللـزوم ..

ولقـد أردت أن أنـزل مــن السـيارة ، وأتفـاوض مـع سـيادته بركلة دبلوماسية محترمة ، ولكن سـائق السيارة



وركابها أصرّوا على العودة إلى القرية ، باعتبار أنه مادام سعادة الباشا العجل قد اعترض الطريق ، فهذا معناه أن السفر ليس مأمونًا اليوم ، ولابد من الرجوع إلى قواعدنا سالمين ..

وكدت أشتعل غيظًا ، ونحن نعود إلى القرية ؛ لأن عجلاً كهذا قد تحكّم فى مصير سبعة من الرجال مفتولى الشوارب (إحم .. كنت الوحيد ، الذى له شارب غير مفتول) ..

وعبثًا ، حاولت إقناع الإخوة الصعايدة ، بأنه من المستحيل أن يكون العجل قد اكتسب عبقرية خاصة ، أو بصيرة مدهشة ، لمجرّد أنه قد حمل اسم سيّدهم (البوَهى) ..

ولكن هيهات !

فالعجيب ، ليس فى الصعيد وحده ، ولكن فى وطننا كله ، أنه مجرّد دس مصطلح الدين ، فى أمور ليست لها أدنى صلة به ، يحوّل الناس إلى صمّ بكم عمى ، فلا يفقهون ، أو يفكرون ، أو يتوقفون لحظة لمراجعة صحة ما يحدث ، حتى إنهم يتحوّلون ، دون وعى منهم ، إلى ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم ، حتى ولو كان ما يفعله هؤلاء الآباء والأجداد وثنيًّا ، أو يخالف كل نصوص وروح الدين نفسه ..

وهذه قضية أخرى أكثر ضخامة ..

ولكن ما علينا .. فلنعد إلى قصة العجل باشا ، وإلى المرة الثانية ، التى استفزنى فيها بشدة ..

والمرة الثانية كانت ذات صباح عمل عادى ، عندما استيقظت لأؤدى عملى فى العيادة ، ففوجئت بأن سيادته (العجل طبعًا) لم يجد فى البلدة كلها مكانًا لراحته ، سوى أمام باب العيادة مباشرة .

والمشهد كله كان مستفزًا ، إلى أقصى حد ، فقد كان هو يجلس أمام باب العيادة ، بتناحته الشهيرة ، أدامها اللّه على كل عجول (البوَهى) ، ويتطلّع فى بلادة إلى العاملين بالوحدة الصحية ، والمرضى الذين جلسوا فى صمت واستسلام ، ينتظرون انصرافه ، حتى يتم توقيع الكشف على فلذات أكبادهم ، الذين يعانون من الحمى ، والألم والعذاب ..

ولأننى غريب من كوكب بحرى ، فقد اتجهت نحو العيادة ، وأنا أقول فى صرامة ، للعاملين فى الوحدة الصحية :

ـ شيلوا العجل ده من هنا .

ولم أكد أنطقها ، حتى خيّل إلىّ أنه كان من الأفضل والأهون ، أن أهتف بكل غطرسة :

ـ ارموا العمدة فى الزبالة .

فعبارتى الأولى أثارت ، موجة عنيفة من الدهشة ..

والغضب ..

والاستنكار ..

والسخط ..

والغيظ ..

والأخير أصابنى وحدى بالطبع ، عندما فوجئت بأن الناس تفضّل ترك أبنائهم يتعذبون ويتألمون ، على أن تمس الباشا العجل ، ولو بكلمة تجرح مشاعره الرقيقة ، التى أظن أنه حتى الأسياخ المحمية على نار ضخمة ، لن تحرك فيها ساكنًا .

وفى هذه المرة عارضت ..

واستنكرت ..

وصرخت ..

وحاولت ..

وفى النهاية ، أدركت أن مواصلة المحاولة قد تعنى تطوّر النقاش إلى الأسلوب الصعيدى ، البسيط المباشر ، المعروف باسم (شومة) ، لأصبح قربانًا لعجل (البوَهى) .

ولم يرق لى أبدًا تخيل ذلك التنح ، وهو يلتهمنى مشويًا (والأفضل محمرًا) ، لذا فقد انسحبت من النقاش ، وصعدت إلى مسكنى ، أعلى العيادة ، فى انتظار انصراف الضيف الرخم ..

يومها راودنى شعور خفى بأنها مسألة عند ؛ فقد ظلَّ سيادته جالسًا أمام باب العيادة ، حتى يئس المرضى وانصرفوا ، وحانت لحظة انصراف العاملين ، وبعدما تأكَّد أنه لم يعد هناك سوانا .. هو ، وأنا ، وحارس الوحدة ، نهض فى تثاقل ، ورفع عينيه إلىَّ ، وهو يطلق خواره البليد الثقيل ، الذى بدا لى لحظتها ، على الرغم من جهلى للغة العجول ، أشبه بضحكة ساخرة ..

وأمام بصرى وغضبى ، ابتعد سيادته بجسمه الضخم ، وترك الجمل بما حمل ..

وليلتها ، سألت حارس الوحدة الصحية بشغف ، عن موعد مولد سيِّدهم (البَوَهى) ؛ نظرًا لأن غريمى اللدود سيتم ذبحه يومها (ويا للشماتة !) وتوزيع لحمه المر ،

على الفقراء والمساكين ، مثل العمدة ، وشيخ البلد ، والأعيان .. الخ .. الخ ..

وفى البداية ، أثلج الحارس صدرى ، عندما أخبرنى أن العجل يذهب وحده إلى مكان المولد ، الذى سيحين بعد شهرين ، ليتم ذبحه أمام الجميع ..

وبدا لى هذا منطقيًا ، على الرغم متن خزعبليته ؛ لأن ضوضاء وهرج المولد سيجذبان حتمًا ذلك الشاب العجلى العابث ، الذى اعتاد التجوال حيثما ووقتما يشاء ، وسيذهب بحوافره إلى هناك ، ليلقى حتفه على يد جزار أعجل منه ..

وفكَّرت لحظتها فى حجز مقعد من مقاعد الدرجة الأولى ، فى حفل الذبح هذا ، حتى أخرج لسانى للباشا العجل ، وسيف الجزار على رقبته ، لولا أن أكمل الحارس حديثه ، ليصيبنى برعب شديد ..

فعلى الرغم من أسطورة ذهاب العجل للذبح ، والتى صدقتها من منطلق لهفتى وشماتتى ، إلا أن هذا لايحدث دومًا ؛ فعجل سابق تاه وضل طريقه إلى المولد ، وآخر اغتاله مطاريد الجبل الخونة ، فى ليلة المولد ، وأكلوه

لحمًا ، ثم رموه عظامًا ، وثالث اختفى قبل المولد بليلة واحدة ، ورابع هرب بجواز سفر زائف إلى البرازيل (وربما مع قرض بملايين الدولارات) ..

وتحطَّم الحلم الجميل ..

إذن فهناك احتمال أن يفرّ الباشا العجل ، صديقى اللدود من الذبح ..

مستحيل ! مستحيل ! مستحيل !

وقضيت ليلتى كلها أفكِّر فى الأمر ، وفى أسلوب يدفعه إلى سيف الجزار دفعًا ..

ولأن دعوته إلى حفل عشاء فى القلعة لم يكن بالفكرة المستساغة ، خاصة وأن (محمد على) باشا قد سبقنى إليها ، فقد استبعدتها ، مع كل الأساليب الودية الأخرى ، ورحت أفكِّر فى عمليات القتل والاغتيال ..

وبالطبع كانت فكرة وضع عقرب سام فى الشاى غير عملية ..

واستئجار قاتل محترف مغامرة غير مأمونة العواقب ..

وكذلك دس الحشيش فى زريبته (لأنه بلا زريبة أساسًا) ..

وبعد تفكير طويل ، واستعراض كل الوسائل والاحتمالات ، لم أجد أمامى سوى الصبر ، وانتظار مولد سيِّدهم (البَوْهى) والسلام ..

ومرَّت الأيام ..

ثم جاء المولد ..

ولأننى من مواليد (طنطا) ، حيث مولد (السيِّد البدوى) ، فقد كانت لدى صورة خاصة عن الموالد ، بكل أضوائها ، وصخبها ، وضجيجها و ... ، و ...

ولم أجد شيئًا من هذا قط ..

فقط بعض النساء ، الشبيهات بخيام الجيش ، حول المقام ، وبعض الرجال بشواربهم المفتولة ، وجزار ضخم ينتظر العجل ، وهو يحمل سيفًا هائلاً ..

ثم لا شىء ..

لا أضواء ..

أو صخب ..

أو أى أمر مثير للانتباه !

واقتنعت يومها بأن عجل (البَوَهى) عبقرية فذة بالفعل ..

فعلى الرغم من أنه كان يجول دومًا هنا وهناك ، ولا يمضى يومان ، دون أن تراه مرة على الأقل ، فقد اختفى تمامًا ، دون أدنى أثر ، طوال يوم المولد ..

وانفضَّ المولد ، باعتبار أن (البَوَهى) لا يريد ذبح عجله هذا العام ..

وعاد الكل إلى منازلهم مبتسمين ..

وعدت أنا إلى الوحدة الصحية بكل غيظ الدنيا ..

وفى صباح اليوم الثانى ، شاهدته يقف فى حقل صغير خلف الوحدة الصحية ، ويتطلَّع إلى النافذة التى أطل منها ، وهو يلعق شفتيه بلسانه ..

ولست أدرى لماذا بدا لى الأمر وكأنه يخرج لسانه ، للخاسر فى معركة أمس .. أنا طبعًا ..

وقبل أن يقتلنى الغيظ ، فوجئت بمشهد لم أتوقَّعه قط ..

(حجاج) يحمل شومة ضخمة ، ويتسلَّل إلى الحقل الخلفى ، الذى يقف به العجل ، وهو يتلفَّت حوله ؛ ليتأكَّد من أن أحدًا لم يلمحه ، خاصة وأن خلف الوحدة يطل على الجبل مباشرة ، وليس على أية بقعة مأهولة ..

وعندما تساءلت عما يفعله (حجاج) ، وجدته يرفع الشومة ، ليهوى بها بكل قوته ، على رأس العجل ..

وعلى الرغم من العداء المستحكم ، بينى وبين ذلك العجل ، فقد انتفض جسدى من هول الضربة ، وذلك الصوت البشع المكتوم ، الذى نشأ عنها ..

وشعرت بالشفقة على العجل ..

واللَّه العظيم شعرت بها ..

ولكن أعقبها مزيج من الدهشة والغيظ ، لأن العجل لم يتحرك من مكانه ، وكأنما كان (حجاج) يداعب رأسه بريشة نعام ..

فقط أطلق خوارًا تنحًا ، وتطلع إلى (حجاج) بمنتهى البلادة ، ثم استدار فى خمول ، وابتعد يهزّ أردافه الضخمة فى بطء ..

ومنذ هذه اللحظة ، وهذا المشهد ، رفعت الراية البيضاء ، وقرّرت الاستسلام تمامًا لقوات الباشا العجل ..

صحيح أن علاقتنا الشخصية لم تتحسّن ، إلا أنلى أخرجته من رأسى تمامًا ، وقرّرت تجاهله للأبد ..

ولم أنجح تمامًا فى هذا ، ولكننى تظاهرت به ، حتى انتهت فترة التكليف ، وجمعت كل متعلقاتى ، للعودة إلى بلدتى ..

وفى يوم السفر النهائى ، جاء عجل (البَوَهى) يتهادى ، وجلس إلى جوار الطريق (وليس فى منتصفه كالمرة السابقة) ، وانتظر حتى انطلقت بى السيارة ، ثم راح يلعق شفتيه بلسانه !

ألا تعلم (وحياة أبوك) ما الذى يمكن أن تعنيه هذه الحركة ؟!

تابع فى الكتاب القادم

* * *



إذا خاصم فجر .. (خواطر)

عجيب هو أمر هذا الجيل ..

التكنولوجيا منحته آفاقًا واسعة ، وقدرة مدهشة على استيعاب العلوم والمعارف ، على نحو لم يتوافر قط لجيلنا ..

بل ولم نحلم حتى بالحصول عليه ..

وهذا الجيل طموح بشراسة ..

ملهوف بقسوة ..

متسرّع بحنون ..

كل شىء فى حياته يريده أن يمضى بغمضة عين ..

كل ما يسعى إليه يريده أن يخضع لضغطة زر ، تمامًا كما فى عالم الكمبيوتر ..

وهذا يتفق تمامًا مع طبيعة هذا العصر ، الذى نشأ فيه ..

عصر السرعة ، والتفوق ، والنمو المتسارع بشدة ..

ولقد انغمس هذا الجيل فى عصره ، على نحو لم يسبق له مثيل ، فى أى عصر آخر .. انغمس حتى النخاع ..

ولأن الإيقاع قد صار سريعًا ، أكثر مما ينبغى ، أصبحت أعصاب هذا الجيل مشدودة ومتوترة أكثر مما ينبغى ..

وكما يحدث فى كل عصر ، انقسم الشباب إلى قسمين :

قسم انغمس فى التكنولوجيا والطموح ، وراح يحلم بمستقبل زاهر متفوّق ..

وقسم ألقى كل التوترات خلف ظهره ، وقرّر أن يحيا بكل استهتار الدنيا ، وكأن الغد لن يأتى أبدًا ..

ولكن القسمين اشتركا فى طبيعة واحدة عجيبة ..

عدم الصبر ..

والاندفاع ..

والقسوة ..

ففى كل عصر وكل زمان ، كان الكبار يختلفون مع الشباب ، وكان الشاب يغضب ويثور لهذا الاختلاف ، ويقدم على أفعال عنيفة أو عجيبة ، للتعبير عن ثورته ورفضه ..

وفى هذا العصر ، أصبح رد الفعل بالغ العنف والقسوة ، وكأنما سيطرت تكنولوجيا الآلة على النفوس ، فانتزعت منها القلوب ، ومحت منها الرحمة ، والأدب ، وكل احترام للقيم والرموز ..

وأصبحت سمة هذا الجيل هى أنه إذا خاصم فجر ..

والخصام هنا يعنى الاختلاف معه فى الرأى ..

فما إن تتعارض مصالح الصغير (المحدودة) ، مع مصالح الكبار ، أو حتى مع المصلحة العامة ، حتى ينفلت لسانه ، وتنفلت مشاعره ، وتتلاشى آدميته ، ويتحوّل إلى وحش كاسر أعمى ، لايدرك عقله ما ينطقه لسانه ..

كلمات وعبارات قاسية ، جارحة ، مؤلمة ، يلقى بها

اللسان فى اندفاع محموم ، وعلى نحو كاف لتمزيق كل روابط المودة والرحمة بين الأطراف ..

والأخطر من هذا أن القيم كلها أصبحت مختلَّة مرتبكة ، يدرك الكل مسمياتها ، ولكنهم لا يدركون معناها أو مغزاها ..

لم يعد هناك من يفرِّق بين الصراحة والوقاحة ، والحرية والانفلات ، والجرأة والاستهتار ..

كل شىء امتزج ، وارتبك ، وتمزَّق ..

كل شىء ..

وبلا رحمة أو هوادة ..

حتى الصداقة ، فقدت معناها الحقيقى ..

كل شخص يطالبك بمنحه كل الثقة ، ويكشف كل أسرارك أمامه ، كقربان للصداقة ، ثم يصرّ هو على الحفاظ على أبسط أسراره ، باعتبارها حرية شخصية !!

أى تناقض عجيب هذا ؟!

القيم البسيطة أيضًا لم يعد لها معنى ..

الكرامة ..

الاحترام ..

الشهامة ..

كل هذا أصبحت له معان أخرى ، تتنافى مع أبسط معانيه الأصلية ..

الكرامة أصبحت اتخاذ رد فعل عنيف ، حتى ولو لم يكن عن حق ..

الاحترام أصبح فى حمل الهاتف المحمول ، والتظاهر بالثراء ونبل الأصل ..

الشهامة أصبحت التستر على أخطاء الآخرين ، وليس الوقوف فى جانب الحق ..

كل المعانى النبيلة تحطَّمت ، على صخرة العصر ..

لذا فالكل يشكو من غياب الرجولة ..

والأنوثة أيضًا ..

الكل يشكو من ضياع الأخلاق والقيم والمبادئ ..

الجيل الجديد ..

والقديم ..

والأقدم ..

الكل يشكو ..

والكل يعانى ..

والكل لا يلتزم ..

وهذا يعنى أننا نواجه مستقبلاً مخيفًا مظلمًا ..

هذا لو آمنا بأن الأمم الأخلاق ما بقيت ..

لو ....

د. نبيل فاروق



١ ـ الحادث ..

انطلقت ضحكة (رأفت) عالية مجلجلة ، داخل منزل أسرته الصغير ، فى ذلك الحى الشعبى ، من أحياء (القاهرة) ، وربَّت على كتف أمه فى حنان ، وهو يداعبها ، قائلاً :

ـ كبير هو قلبك يا أمى ، وعظيمة هى كلماتك .

ثم مال نحوها ، وطبع قبلة حانية على خدها ، متابعًا :

ـ ولكننى ـ للأسف ـ لا أستطيع طاعتك هذه المرة .

مطّت أمه شفتيها فى غضب ، وهى تقول معاتبة :

ـ هذه المرة فقط ؟! إنك لا تطيعنى أبدًا .. دائمًا تستمع إلى عقلك وحده .. كم أنت عنيد !

ابتسم والده ، وهو يغمغم :

ـ من شابه أباه فما ظلم .

التفتت إليه ، هاتفة :

ـ ماذا أصابك أنت أيضًا ؟!

ضحك الوالد ، وهو يلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ لا شىء .. أنا لم أقل شيئًا .

عاد (رأفت) يطبع قبلة على وجنة أمه ، وهو يقول :

ـ أمى .. إننى لن أسافر وحدى .. هيئة التحرير كلها ستذهب لزيارة المطابع الجديدة ، فى السادس من أكتوبر .. وهذا ليس سفرًا بالمعنى المألوف .. إنها مسافة قريبة .

هزّت أمه رأسها فى إصرار ، قائلة :

ـ قلبى لا يشعر بالارتياح هذه المرة .

ضحك (رأفت) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ هل تتصوَّرين أننى سأعتذر عن الذهاب ؛ لأن قلب أمى لا يشعر بالارتياح ؟!

قالت فى حدة :

ـ ولِمَ لا ؟!

ارتفت ضحكته مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لأن العمل لا يعرف هذا ، أو يعترف به .. العمل لاشأن له بقلوب الآباء والأمهات .. العمل عمل ..

قالت الأم فى حدة :

ـ هو عمل غبى إذن .

تطلّع إليها (رأفت) بضع لحظات ، فى حنان مشفق ، قبل أن يطبع قبلة أخرى على خدها ، قائلاً :

ـ أمى .. أنا مضطر للذهاب .. أرجوك .. لا تجعلينى أذهب مخلفًا غضبك منى .

رقّ صوتها ، وشملته بحبها وحنانها الجارفين ، وهى تغمغم :

ـ لست غاضبة منك يا ولدى ، بل خائفة عليك .

نهض ، قائلاً :

ـ لا تخافى .. كل شىء سيسير على ما يرام بإذن الله .

تبعته ببصرها ، وهو يغادر الحجرة ، ثم تنهّدت فى حرارة ، وغمغمت :

ـ إنهم لا يدركون ما يعنيه قلب الأم .

لم يسمع (رأفت) عبارتها ، وهو يلملم أشياءه فى سرعة ، حتى يلحق برفاقه ، ولكن والده لحق به فى حجرته ، ووقف صامتًا ، يتطلّع إليه بضع لحظات ، قبل أن يغمغم فى حذر :

ـ حافظ على نفسك جيدًا الليلة .

ابتسم (رأفت) مغمغمًا :

ـ ولماذا الليلة ؟!

تردّد الوالد لحظة ، قبل أن يقول :

ـ بينى وبينك ، أنا أصدّق مشاعر أمك جيدًا .

التفت إليه (رأفت) بابتسامة كبيرة ، فاستطرد فى سرعة :

ـ لى تجارب عديدة معها .. صدقنى .. إنها تمتلك بصيرة حادة .

ربّت (رأفت) على كتفه ، مغمغمًا :

ـ أبقاكما الله لى ، وحفظكما بصحة وسعادة .

لم يحاول والده اعتراضه ، وهو يغادر المنزل ، ولكن شيئًا ما انقبض فى صدره ، وهو يغمغم :

ـ حفظك الله يا ولدى .. حفظك الله ورعاك .

لم يسمع (رأفت) هذه العبارة أيضًا ، وهو يهرع إلى سيارته الصغيرة ، متمتمًا فى توتر :

ـ رباه ! لقد تأخرت كثيرًا .. أتعشم أن يكون الطريق هادئًا ؛ حتى أصل فى موعدى .

كان يشعر بقلق شديد ، وهو يتطلّع إلى ساعته ، وعقله يحسب الزمن المتوقّع ، لبلوغ مبنى الجريدة ، فى مدينة مزدحمة مثل (القاهرة) ، وفى ساعة كهذه ، تزدحم الشوارع فيها بالسيارات والمارة ..

كان مبعث قلقه وتوتره أنه قد اعتاد دومًا الحفاظ على مواعيده ، بدقة اشتهر بها بين أقرانه ، وساعدته على التفوّق عليهم ، فى بعض التحقيقات ، مع كبار المشاهير ، ورجال الأدب والسياسة ..

ولأنه يعلم أن حافلة الجريدة ستحمل الجميع إلى المطابع الجديدة ، بعد أقل من نصف الساعة ، فقد زاد من سرعة سيارته الصغيرة ، واتجه بها مباشرة نحو الكوبرى العلوى ، فى محاولة لاختصار الطريق والوقت ..

ولقد انطلقت من أعمق أعماقه تنهيدة حارة ، عندما بدا له الكوبرى خاليًا ، فزاد من سرعة السيارة أكثر ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .. هناك فرصة للوصول فى الموعد .

أدار عجلة القيادة فى حركة حادة ، ليصعد فى المنحنى الأوّل للكوبرى ، وهو يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، و ....

وفجأة ، وجد تلك السيارة أمامه ..

سيارة سوداء كبيرة ، توقّفت إلى يسار الطريق ، على عكس المعتاد ؛ ليستبدل سائقها إطارًا تالفًا ..

كان خطأ بالغًا من قائد السيارة الكبيرة ، الذى يتحتّم عليه دومًا التوقّف إلى يمين الطريق ..

لذا فقد بوغت به (رأفت) أمامه ، وهو يصعد الكوبرى بسرعته الكبيرة ..

ومع المفاجأة ، أدار عجلة القيادة على نحو غريزى إلى اليمين ..



إلى أقصى اليمين ..

وانحرفت السيارة الصغيرة فى عنف ..

وأطلقت إطاراتها صرخة قوية مخيفة ، امتزجت بصراخ قائدة سيارة أخرى قريبة ..

ثم ارتطمت السيارة بسور الكوبرى فى عنف ..

وشعر (رأفت) بجسده يندفع إلى الأمام ، ويكاد يرتطم بتابلوه السيارة ، أو بزجاجها الأمامى ، لولا حزام الأمان ، الذى يشده إلى مقعده ..

وبعدها رأى جزءًا من سور الكوبرى يطير أمام عينيه ..

ثم اختلَّت زاوية الرؤية تمامًا ..

وشعر بجسده يهوى ..

ورأى قمة سيارة ضخمة ، من سيارات نقل الجنود ، تقترب منه فى سرعة مخيفة .

وكان الارتطام عنيفًا ..

عنيفًا للغاية ..

ولوهلة ، تسلَّل إلى ذهنه صوت صرخات عديدة مختلفة ، ووقع أقدام تعدو ..

ثم أظلمت الدنيا كلها دفعة واحدة ..

تمامًا ..

* * *

« إنه يعود إلى وعيه »

كانت هذه أوَّل عبارة تتسلَّل إلى أذنيه عبر الظلام ، حاملة صوتًا أنثويًّا مألوفًا ، جعله يفتح شفتيه ، فى محاولة لقول شىء ما ، إلا أن كل ذرة فى كيانه قد شعرت بالضعف ..

ضعف شديد ، بدت معه شفتاه ثقيلتين إلى حد كبير ، فعاد يغلقها ، وأذنه تلتقط صوت والده ، يغمغم بلهجة غلب عليها البكاء :

- حمدًا وشكرًا لك يا رب .. حمدًا وشكرًا لك .

ثم شعر بوالدته تحتضنه ، وهى تبكى ، هاتفة :

- حمدًا للَّه على سلامتك يا ولدى .. كنت أعلم أن هذا سيحدث .. قلبى أنبأنى ، وأنتم سخرتم منى .

بذل جهدًا ضخمًا ليفتح عينيه ، وليتمتم :

- أين أنا ؟!

قبل حتى أن يجيب أحدهم سؤاله ، بدأ يستوعب ما حوله ..

كان يرقد داخل حجرة مستشفى صغير ، وأمه تحتضنه ، ووالده يقف إلى جوار فراشه ، فى حين تبكى زميلته (نجوى) أمامه ، فى فرح وسعادة ، وهى تقول من وسط دموعها :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (رأفت) .. حمدًا لله .

حاول عبثًا أن يعتدل ، وهو يتساءل فى حيرة :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابته أمه ، وهى تبكى فى حرارة :

ـ سيارتك سقطت من الكوبـرى ، فوق سيارة من سيارات الجيش ، كانت فارغة لحسن الحظ ..

استعادت ذاكرته الموقف كلـه مـع كلماتهـا ، فهتـف فـى ضعف :

ـ آه .. تلك السيارة السوداء الكبيـرة اعترضت طريقى أمس ، و ....

هتفت أمه :

ـ أمس ؟!

وتطلّعت إلى والده فى هلع لم يفهمه ، فتساءل فى حيرة :

ـ ألم يحدث هذا أمس ؟!

مسحت (نجوى) دموعها ، وهى تحاول الابتسام ، قائلة :

ـ الحادث وقع منذ ثلاثة أسابيع يا (رأفت) .

اتسعت عيناه ، وهو يغمغم :

ـ ثلاثة أسابيع .. ولكن ..

لم يستطع إكمال عبارته ، مع ضعفه ودهشته ، فتراجع مرة أخرى فى فراشه ، وتمتم :

ـ يا إلهى ! .. يا إلهى !

قالت أمه ، وهى تبكى على صدره :

ـ كانت حالتك خطيرة للغاية بعد الحادث ، والأطباء تصوَّروا أنه لا أمل فى نجاتك ، بسبب إصابة رأسك .

رفع يده بحركة آلية ، يتحسَّس ضمـادات رأسـه ، التى شعر بها لأوَّل مرةٍ ، مع كلمات أمه ، وهو يغمغم :

ـ رأسى ؟!

قاوم أبوه مشاعره ، ليومئ برأسه ، قائلاً :

ـ كان الكل فاقدى الأمل تمامًا ، فيما عدا الدكتور (صبرى) .. إنه طبيب وجراح شاب ، للمخ والأعصاب ، وسندين لـه ، ما تبقى مـن حياتنـا ، بسبب إصراره على إجراء عملية بالغة الخطورة لك .. عملية استغرقت ست ساعات كاملة ، قبل أن يخبرنا أنه هناك أمل فى نجاتك .

تحسَّس (رأفت) ضمادات رأسه مرة أخرى ، وهو يتمتم :

ـ أى نوع من العمليات ؟!

ضحكت (نجوى) من بين دموعها ، وهى تقول :

ـ وما شأننا نحن ؟! لسنا أطباء لنفهم ما يحدث .. المهم أنك قد استعدت وعيك ، وعدت إلينا سالمًا .

انبعث من خلفها صوت يقول فى مرح :

ـ نعم .. عاد إلينا سالمًا ، بعد أن أرهقنا جميعًا .

أدار (رأفت) بصره ، مع استدارتهم جميعًا ، ورأى ذلك الطبيب الشاب ، الذى يدلف إلى الحجرة ، والذى اندفعت أمه نحوه ، هاتفة :

ـ كيف أشكرك يا ولدى .. كيف أشكرك !! إننى أدين لك بحياتى وحياة ابنى الوحيد .

ابتسم الطبيب فى هدوء ، وهو يقول :

ـ قمت بواجبى فحسب يا أماه .

احتوته الأم بين ذراعيها ، هاتفة ، والدموع تغرق وجهها من جديد :

ـ من اليوم أنت ابنى الثانى ، بعد أن أعدت إلىَّ ابنى الأوَّل .

بدت الدهشة لحظة على الطبيب الشاب ، ثم لم يلبث أن ربَّت عليها فى حنان ، وهو يغمغم :

ـ أشكرك كثيرًا يا أمى .. والآن اسمحى لى بفحص أخى ، الذى استعاد وعيه منذ قليل ، بعد غيبوبة طويلة .

أفسحت له الطريق ، وهى تربِّت عليه فى حنان وسعادة ، فاتجه مبتسمًا نحو (رأفت) ، وقال فى مرح :

ـ كيف حال الصحفى الهمام ؟!

غمغم (رأفت) :

ـ بخير والحمد لله (العلى القدير) ..

بدأ الدكتور (صبرى) فى فحصه ؛ ليتأكَّد من أن كل شىء على ما يرام ، واستسلم له (رأفت) بعض الوقت ، قبل أن يسأله :

ـ ما نوع العملية ، التى أجريتها لى ؟!

ابتسم الطبيب ، وهو يجيبه :

ـ عملية من نـوع جديد .. أنـت أوَّل من تُجرى له ، فـى الشرق الأوسط كله .

هتفت (نجوى) :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أومأ الطبيب برأسـه ، وتـابع ، وهـو يواصـل فحص (رأفت) :

ـ كان هناك كسر فى قاع الجمجمة ، وشريان أو اثنين تهتكا تمامًا ، مع وريد رئيسى ، وكان من الضرورى أن نمنع النزيف فورًا ، ثم نعيد تشكيل الـدورة الدمويـة المخية ، لتعويض أجزاء الشرايين والأوردة التالفة ، وهذا ليس بالأمر السهل .

سأله (رأفت) فى قلق :

ـ ألا يمكن أن يؤدى هذا إلى خلل ما ؟!

عاد الطبيب الشاب يبتسم ، وهو يقول :

ـ هل تشعر بأى خلل ؟!

حرَّك (رأفت) أطرافه خفية ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ ليس على نحو واضح .

تراجع الطبيب ، وهو يقول :

ـ من الناحية الطبية ، كل شىء على مـا يرام ، فاستجاباتك العصبية سـليمة ، وتفاعل العين مع الضوء مثالى ، ولقد تذكَّرت من حولك ، ولم تفقد إحساسك الطرفى ..

بكت الأم فى فرح ، فى حين هتف الأب فى حماسة :

ـ أصـابعك الذهبيــة لهــا الفضـل فى هـذا ، بعـد اللّه (سبحانه وتعالى) ، يا دكتور (صبرى) .

وشاركت (نجوى) الأم بكاءها الفرح ، فابتسم (رأفت) فى شىء من القلق ، وهو يتساءل :

ـ أيعنى هذا أنه لن تظهر أية مفاجآت مستقبلية ؟!

صمت الدكتور (صبرى) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أن المخ البشرى ، على الرغم من كل مـاكشفناه بشأنه ، وكل الدراسات التى أجريت حولـه ، فـى كافـة المجالات ، ما زال لغزًا كبيرًا مجهولاً ، ومـا زالت هنـاك أجزاء غامضة كبيرة فيه ، فالعلمـاء ، مع كل تقدّمهم ، لـم يكشفوا بعد سر الأحلام مثلاً ، بل ولم يجدوا سببًا حاسمًا حازمًا واحدًا ، لحاجتنا إلى النوم ، من الناحية العلمية(*) .

(*) حقيقة علمية .

سأله (رأفت) ، فى مزيج من الحذر والقلق :

ـ وما الذى يعنيه هذا ، بجواب صريح ؟!

بدا التوتر على الوالدين ، فهتفت (نجوى) ، محاولة تهدئة الموقف :

ـ يا لك من مجادل عنيد يا (رأفت) ! هيا .. كف عن توترك ، وتلك الأسئلة الصحفية ، التى أصبحت جزءًا من شخصيتك ، وابذل قصارى جهدك لتخرج من هنا ؛ فقد انتقلنا بالفعل إلى مقر الجريدة الجديد ، منذ أسبوع واحد ، والزملاء ينتظرون عودتك ، حتى يفتتحوه رسميًا .

تطلَّع إليها الدكتور (صبرى) بابتسمة هادئة ، حتى انتهت من حديثها ، فالتفت إلى (رأفت) ، وتطلَّع إليه أيضًا بصمت ، قبل أن يقول :

ـ اطمئن يا أستاذ (رأفت) .. ما دامت كل أجهزتك تعمل على نحو طبيعى ، فلست أظن أنه ستفاجئنا أية أمور ضخمة .

غمغم (رأفت) فى قلق :

ـ من يدرى ؟!

ولم يجب الدكتور (صبرى) ..

فقد كان هذا هو السؤال نفسه ، الذى يشتعل به ذهنه ، منذ استعاد (رأفت) وعيه ، وتذكَّر كل من حوله ..

مع عملية جديدة ومعقَّدة كهذه ، من يدرى ما الذى يمكن أن يحدث ؟!

من ؟!

* * *

٢ ـ المقر الجديد ..

تهلّلت أسارير (رأفت) ، وانتعشت كل ذرة من كيانه ، مع الاستقبال الحافل ، الذى استقبله به رفاقه ، فى مقر الجريدة الجديد .

كان من الواضح أن الكل يكنّ له الكثير من الود والمحبة ، وبخاصة (نجوى) ، التى كانت تتحرك فى كل مكان ، وتقدّم الحلوى والمشروبات للجميع ، فى فرح وسعادة ، وكأنها تحتفل بعيدها هى ..

أما الأستاذ (ماهر) ، رئيس التحرير ، فقد صافحه فى حرارة شديدة ، وأصرّ على أن يقوم بقص شريط الافتتاح الرمزى بنفسه ، وربّت على كتفه فى مودّة ، وهو يضحك ، قائلاً :

ـ الآن فقط أثبتّ لنا أن رأسك بالصلابة التى نعرفها عنه يا بطل .

ضحك الكل لدعابته ، وقضوا بعض الوقت فى المرح والمزاح ، قبل أن يصفق رئيس التحرير بيده ، قائلاً :

ـ هيا يا رجال .. لا يمكننا قضاء كل الوقت فى المرح .. هناك جريدة أسبوعية ، ينبغى أن يصدر العدد الجديد منها صباح السبت .. دعونا لاننس هذا .

ضحكت (نجوى) ، وهى تقول :

ـ الرجال فقط ، أم النساء أيضًا .

ابتسم الأستاذ (ماهر) ، وهو يقول :

ـ الكل هنا رجال .. هيا .. لن نضيع المزيد من الوقت .

قالها ، واتجه إلى حجرة مكتبه مباشرة ، فمالت (نجوى) على أذن (رأفت) ، هامسة فى مرح :

ـ لا تصدّقه .

غمغم ، وهو يتأمّل وجهها الجميل :

ـ بالتأكيد .

ضحكت فى سعادة ، واتجهت إلى مكتبها ، وسرعان ما انهمكت مع الآخرين ، فى إعداد ومراجعة المقالات والموضوعات اللازمة ، والمطلوبة للعدد الجديد ، فيما عدا (رأفت) ، الذى راح يدير عينيه فيما حوله ، ويتأمّل المكان فى اهتمام ، ويقارن بينه وبين المقر القديم ..

وعلى الرغم من أن المقر الجديد يحتلّ طابقًا كاملاً ، من بناية عريقة ، فى منطقة وسط (القاهرة) ، إلا أن شيئًا ما

فى أعماقه جعله يشعر بعدم الارتياح لـه ، ووجد نفسـه يفضّل المبنى القديم ، فى حى (شبرا) ، على الرغم من حجراتـه الضيقة ، و ....

وفجأة رأى ذلك الرجل ..

رجل حاد القسمات والنظرات ، عبر بـاب الجريدة ، فى بطء عجيب ، وكل خلجة من خلجاتـه تشفّ عن العصبية والتوتر ..

ولثانية ، توقَّف الرجل ، وأدار وجهه النحيل إليه ..

والتقت نظراتهما ..

ودون وعى منه ، وجد (رأفت) جسده يرتجف ، وشعر بقشعريرة باردة كالثلج تسرى فى كيانه ، وراح قلبه يخفق فى قوة وعنف ، وهو يتطلّع إلى عينى ذلك الرجل ، اللتين بدتا له مخيفتين ..

وإلى أقصى حد ..

ولكن الرجل لم يتوقّف عنده طويلاً ..

لقد انتقل بغتة ، من البطء إلى السرعة الشديدة ، وهو يندفع نحو حجرة الأستاذ (ماهر) رئيس التحرير ، ويفتحها



دون استئذان ، ودون أن يطرق حتى بابها ، ثم يغيب داخلها ، ويصفق الباب خلفه فى قوة ..

والعجيب أن عم (عامر) ، فرَّاش مكتب رئيس التحرير ، لم يعترضه ..

بل ولم يسأله حتى عما يريد ..

كان وكأنه يعرفه جيِّدًا ..

ويعرف هدفه أيضًا ..

وتراجع (رأفت) فى مقعده ، وذلك التوتر العجيب مازال يسرى فى كيانه ، وحدَّق فى باب حجرة الأستاذ (ماهر) المغلق لنصف دقيقة كاملة ، خفق خلالها قلبه بعنف أكثر مما ينبغى، حتى إنه لم يحتمل، فمال على زميله (أسعد) ، يسأله :

ـ من ذلك الرجل ؟!

رفع (أسعد) عينيه إليه ، وهو يتساءل فى حيرة :

ـ أى رجل ؟!

أشار (رأفت) بيده ، وهو يقول فى عصبية ، لم يدر سببًا منطقيًا لها :

ـ الرجل الذى دخل الآن ، والذى دلف إلى حجرة الأستاذ (ماهر) مباشرة .

حدَّق (أسعد) فى وجهه لحظة ، ثم أدار عينيه إلى باب حجرة الأستاذ (ماهر) ، قبل أن يهزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لم أر رجلاً يدخل هنا ، ثم إنك تعرف كيف يتحدَّث عم (عامر) بصوته الجهورى ، الذى يبلغ مسامعنا جميعًا ، وهو يعلن لرئيس التحرير ، وجود زائر ما .

قال (رأفت) فى إصرار :

ـ عم (عامر) لم يعترضه .. لقد دخل حجرة الأستاذ (ماهر) مباشرة .

تدخَّلت (نجوى) فى الحديث ، قائلة :

ـ مستحيل ! أنت تعرف الأستاذ (ماهر) مثلنا .. لا أحد يدخل حجرته دون استئذان ، حتى والده نفسه .

هتف (رأفت) فى حدة :

ـ لقد رأيت ذلك الرجل بنفسى .

بدا القلق على وجه (نجوى) ، وهى تتطلَّع إليه فى حيرة ، فى حين لوَّح (أسعد) بيده فى بساطة ، وقال :

ـ الأمر سهل للغاية .

ثم مال إلى الأمام ، هاتفًا :

ـ عم (عامر) .. من الزائر ، فى حجرة الأستاذ (ماهر) ؟!

حدَّق فيه عم (عامر) بدهشة ، وهو يقول :

ـ زائر ؟! أى زائر ؟!

أجابه (رأفت) فى حدة وغضب :

ـ الزائر النحيل ، الذى دخل من الباب إلى حجرة الأستاذ (ماهر) مباشرة ، دون أن ..

قبل أن يكمل عبارته ، أشار عم (عامر) إلى البـاب ، قائلاً :

ـ أستاذ (رأفت) .. لم يأتنا أى زائر اليوم .. إننا حتى لم نفتح الباب مرةً واحدة .

أدار (رأفت) عينيه بحركة حادة إلى البـاب ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

فالباب كان مغلقًا بالفعل ..

وهو لا يذكر أن ذلك النحيل قد أغلق الباب خلفه ..

ليس باب الطابق ..

وفى عصبية شديدة ، هبَّ من مقعده ، هاتفًا :

ـ لقد رأيته بنفسى .

ثم اندفع فجأة نحو حجرة الأستاذ (ماهر) ، فاتسعت عيون رفاقه فى دهشة ، وشهقت (نجوى) ، هاتفة فى ارتياع :

ـ (رأفت) ، ماذا تفعل ؟!

أما عم (عامر) ، فقد حاول اعتراض طريق (رأفت) ، وهو يقول :

ـ أستاذ (رأفت) .. أنت تعرف أوامر الـ ....

أزاحه (رأفت) عن طريقه فى حدة ، هاتفًا :

ـ ابتعد .

ثم فتح باب حجرة مكتب رئيس التحرير ، واندفع داخلها ، و ....

« ما هذا ؟! كيف تسمح لنفسك باقتحام مكتبى هكذا ؟! »

صاح الأستاذ (ماهر) بالعبارة ، فى غضب هادر ، إلا أن (رأفت) لم يسمعها تقريبًا ، وهو يدير عينيه فى الحجرة بذهول ..

فبخلاف رئيس التحرير ، لم يكن هناك مخلوق واحد داخل الحجرة ..

أى مخلوق ..

وبغضب متصاعد ، هبَّ الأستاذ (ماهر) من مكتبه ، وصاح به مرة أخرى :

ـ كيف تجرؤ ؟!

فى نفس اللحظة ، اندفعت (نجوى) مع الآخرين إلى الحجرة ، وهتفت فى لوعة :

ـ (رأفت) ! ماذا أصابك ؟!

شحب وجه (رأفت) على نحو مخيف ، وهو يدير عينيه مرة أخرى فى المكان ، الذى ليس له سوى باب واحد ، وتصبَّب على وجهه عرق غزير ، وهو يغمغم :

ـ لقد رأيته بنفسى .

نطقها بصعوبة ، ثم تلاشى إحساسه بما حوله .. ودفعة واحدة ..

* * *

« صف لى ما حدث بالضبط .. »

ألقى الدكتور (صبرى) السؤال فى اهتمام ، على مسامع (رأفت) ، الذى أطلَّت من عينيه حيرة بالغة ، وهو يقول :

ـ لقد رأيته بنفسى .. رأيته كما أراك الآن .. بكل الوضوح .

قال الدكتور (صبرى) فى اهتمام :

ـ ولكنه لم يكن هناك فعليًا .. أليس كذلك ؟!

تردَّد (رأفت) بضع لحظات ، وهو يشعر بغصة فى حلقه ، بعد أن روى القصة نفسها مرتين ، ثم لم يلبث أن قال فى عصبية :

ـ هذا ما يقولونه .

تطلَّع إليه الدكتور (صبرى) طويلاً ، ثم قال :

ـ ولكنك تأكَّدت بنفسك

صاح (رأفت) ، وهو ينهض من مقعده بحركة حادة :

ـ وهذا ما يكاد يصيبنى بالجنون .

ثم توقَّف بغتة ، وأطلَّ الذعر من عينيه ، وهو يلتفت إليه متسائلاً .

ـ أم أنه قد أصابنى بالفعل ؟!

صمت الدكتور (صبرى) ، وهو يتطلَّع إليه بعينين قلقتين ، فهتف (رأفت) :

ـ أخبرنى بالله عليك .. هل أصابنى الجنون ، من جراء إصابة الرأس هذه ؟! هل أصابنى ؟!

تنهَّد الدكتور (صبرى) ، وقال :

ـ دعنى أصدقك القول .. هناك بالفعل حالات جنون ، تنشأ من إصابات المخ والقشرة المخية ، وكذلك حالات انفصام الشخصية ، ولكن ..

توقَّف عند هذه النقطة بضع لحظات ، فهتف به (رأفت) :

ـ ولكن ماذا بالله عليك ؟!

هزَّ الدكتور (صبرى) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ ولكننى لست متخصصًا فى هذا المجال ..

ثم تطلَّع إلى عينيه مباشرة ، ليضيف فى حزم :

ـ إنك تحتاج إلى طبيب نفسى .

اتسعت عينا (رأفت) عن آخرهما ، وهو يتراجع بحركة حادة كالمصعوق ، وهو يردِّد فى ارتياع :

ـ طبيب نفسى ؟!

وارتجف جسده وصوته ، وهو يضيف :

ـ إذن فقد أصابنى الجنون بالفعل .

هتف الدكتور (صبرى) فى صرامة :

ـ كلاَّ .. لاتقع فى نفس الخطأ ، الذى يقع فيه الجهلاء .

ثم نهض ليضع يده على كتفه فى قوة ، قائلاً :

ـ فارق كبير بين المتاعب النفسية والجنون .. كبير جدًّا .

وصمت لحظة ، قبل أن يجبر نفسه على الابتسامة ، متابعًا :

ـ ثم إنك لن تتعامل مع طبيب نفسى عادى .

أدار إليه (رأفت) عينين متسائلتين ، فتابع بنفس الابتسامة :

ـ هل سمعت من قبل عن الدكتور (ثروت الشربينى) ؟!

هزَّ (رأفت) رأسه نفيًا ، فتابع الدكتور (صبرى) :

ـ الدكتور (ثروت) أحد أفضل أساتذة الطب النفسى ، فى الشرق الأوسط كله ، بل وربما فى العالم أجمع ، على الرغم مما ستتهمنى بـه من المبالغة ، فهو يجيـد علـم النفس ، والطب النفسى ، وحاصل على شهادة فى علم الاجتماع ، وله دراسات فى الآثار النفسية ، المترتبة على إصابات المخ ، كما أنه واحد من الأساتذة المعدودين ، فى علم الظواهر فوق النفسية وفوق السلوكية .

وصمت لحظـة ، التقط خلالها نفسًا عميقًـا ، قبـل أن يضيف فى حزم :

ـ باختصار .. إنه الرجل الذى تحتاج إليه تمامًا .

سأله (رأفت) فى توتر قلق :

ـ وما الذى يمكن أن يفيدنى به ؟!

التقط الدكتور (صبرى) سمَّاعة هاتفه ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟!

ومرة أخرى ، كان هذا هو السؤال ..

من يدرى ؟!

* * *

منذ الوهلـة الأولـى ، شـعر (رأفت) بالارتيـاح للدكتـور (ثـروت) ؛ فقد كـان رجـلاً وقـورًا هادئـا ، باسـم الثغـر ، يمنحه ذلك الشيب ، الذى غزا شعره كله ، هيبة ذات طابع خاص ، فى حين تطلّ من عينيه ، اللتين تبدوان من خلـف منظار طبى أنيق ، لمحة من ذكاء متوقِّد ، يجعلك تمنحـه ثقتك ، فور وقوع بصرك عليه ..

ولقد استقبله الرجل بابتسامة كبيرة ، وقـاده إلـى مقعد وثير ، وهو يقول :

ـ الدكتور (صبرى) شرح لى الأمر كله ، ولكن يهمنى جدًّا أن أسمع القصة منك شخصيًّا .

وعلى الرغم من أنهـا المـرة الخامسة ، التى يروى فيها ما حدث ، منـذ شـاهد ذلـك النحيل ، إلا أن (رأفـت) راح يروى للطبيب النفسـى الموقـف كلـه ، وبـأدق التفاصيل ، والرجل يستمع إليـه فى اهتمـام بالـغ ، ودون أن يقاطعه

بحرف واحد ، حتى انتهى من روايته ، فتراجع الدكتور (ثروت) فى مقعده، وداعب ذقنه، وتطلَّع إليه مواصلاً صمته، وهو يداعب ذقنه بسبابته لدقيقة ، قبل أن يعتدل ، قائلاً :

ـ أهذه أوّل مرة يحدث فيها هذا لك ؟!

أومأ (رأفت) برأسه إيجابًا ، فسأله الرجل :

ـ وماذا عن أسرتك ؟!

سأله (رأفت) فى حذر :

ـ ماذا عنها ؟!

أشار الرجل بيده ، قائلاً :

ـ هل سبق لأحد من أسرتك أن شاهد أية هلاوس ، أو ....

قاطعه (رأفت) ، وهو يهبّ من مقعده فى حدة ، هاتفًا :

ـ هلاوس ؟! قلت لك : إننى لست مجنونًا .

ابتسم الرجل فى هدوء ، وهو يقول :

ـ وأنا لم أقل العكس يا أستاذ (رأفت) .. ولم أشر حتى إليه ، ولكننى استخدمت المصطلح الطبى فحسب .

ثم جذبه من يده فى رفق ؛ ليعيده إلى مقعده ، وهو يقول :

ـ دعنا نطلق عليها اسم رؤيا .. ولنصغ السؤال مرة أخرى .. هل سبق لأحد من أسرتك أن شاهد أية رؤيا من قبل ؟!



تردَّد (رأفت) ، واستعادت ذاكرته موقف أمه ، قبل الحادث مباشرة ، ولكنه طرح هذا عن رأسه ، وهو يجيب فى حذر :

ـ ليس على حد علمى .

أومأ الدكتور (ثروت) برأسه منغمًا ، وأشار بيديه ، قائلاً :

ـ فلننتظر إذن .

ردَّد (رأفت) فى دهشة مستنكرة :

ـ ننتظر ؟!

هزَّ الرجل كتفيه فى بساطة ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. فهناك أمور لايمكن حسمها ، إلا لو تكرَّرت الرؤيا مرة أخرى .

هتف (رأفت) فى عصبية :

ـ مثل ماذا ؟!

ابتسم الدكتور (ثروت) ، فى رصانة ووقار ، وهو يجيب فى هدوء :

ـ اترك لى هذا .

وعلى الرغم من أن هذا الجواب لم يمنحه أية تفسيرات ، إلا أن (رأفت) ، ولسبب لم يستطع تفسيره أبدًا ، شعر بالارتياح والثقة ..

بل وراوده شعور بأن المشكلة قد انتهت ..

نهائيًا ..

* * *

« ألأنت واثق من أنك لا تحتاج إلى إجازة أخرى ؟! »

نطق الأستاذ (ماهر) رئيس تحرير الجريدة السؤال ، فى حذر متوتر ، وعلى نحو جعل (رأفت) يشعر بالغضب ، وهو يجيب :

ـ إننى فى خير حال ..

كرَّر الأستاذ (ماهر) :

ـ ألأنت واثق ؟!

سيطر (رأفت) على أعصابه فى صعوبة ، وهو يتمتم :

ـ واثق تمامًا .

ظلَّ رئيس التحرير يتطلَّع إليه بضع لحظات فى صمت ، فقال فى عصبية :

ـ أستاذ (ماهر) ، أنا لست محرِّرًا جديدًا .

غمغم (ماهر) ، وهو يطلق زفرة حارة :

ـ بالتأكيد يا (رأفت) .. بالتأكيد .

قالها ، وعاد إلى مكتبه ، وأغلق بابه خلفه ، فلوَّح (رأفت) بيده فى حنق ، قائلاً :

ـ ماذا أصابه ؟! أيظننى مجنونًا ؟!

اختلس (أسعد) نظرة حذرة إليه ، وتظاهر بالانهمـاك فى العمل ؛ ليتحاشى الدخول معه فى مناقشة ما ، فى حين غمغمت (نجوى) :

ـ لا تجعل هذا يزعجك .

كانت تتمنى لو احتوته بين ذراعيها ، ومرَّرت أصابعها على شعره ؛ لتمتصّ كل توتره ، وهى تضيف فى حنان :

ـ الكل هنا يعلم أنك أعقل العاقلين .

أدار عينيه فى وجوه رفاقه ، الذين يتحاشونه بالانشغال فى أعمال وهمية ، وهو يقول فى حدة :

ـ ليس هذا ما يبدو لى .

جلس خلف مكتبه فى عصبية بالغة ، فترددت هى لحظـة ، ثم جذبت مقعدًا ، وجلست إلى جواره ، وقالت بابتسامة حانية :

ـ كانت حكمة منك ألا تخبر والديك ما حدث .

هزَّ رأسه ، وزفر فى عصبية ، قائلاً :

ـ لم أكن لأحتمل نظراتهما إلىَّ كمجنون .

هتفت :

ـ لست مجنونًا يا (رأفت) .

ثم انخفض صوتها ، وهى تضيف :

ـ أنت أعظم إنسان فى الدنيا كلها .

أدار عينيه إليهـا ، والتقت نظراتهمـا لحظـة ، فتضـرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وخفضت بصرها متمتمة :

ـ بالنسبة لى على الأقل .

ومن أعمق أعمـاقه ، تصاعد شعور جميل ، ليسرى فـى عروقه ، ويغذى كل ذرة من كيانه ..

وخفق قلبه ..

بل رقص بين ضلوعه ..

وفى تلك اللحظة ، بدت له (نجوى) كأجمل مخلوق فى العالم أجمع ..

وتمنى لو أنها تصبح رفيقة عمره ، و ....

وفجأة ، لمح باب حجرة مكتب الأستاذ (ماهر) ، وهو يُفتح بحركة حادة ، فرفع عينيه إليه بحركة غريزية ، فى نفس اللحظة التى تمتمت فيها (نجوى) :

ـ أعتقد أن كل ما تحتاج إليه هو قليل من الراحة ، و ....

قبل أن تتمّ عبارتهـا ، انتفض جسده بغتة فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يثب من مقعده بحركة حادة ..

فما رآه أمامه ، فى هذه اللحظة ، كان مخيفًا .. إلى درجة الرعب .

* * *

٣ ـ ثورة عقل ..

كل ذرة فى كيان (رأفت) راحت ترتجف فى انفعال ، وهو يرقد على تلك الأريكة الوثيرة ، فى حجرة الدكتور (ثروت) ، الذى جلس إلى جواره ، وضغط زر التسجيل ، متسائلاً بنفس الصوت الهادئ الوقور :

ـ أهو نفس الرجل النحيل ، الذى رأيته فى المرة السابقة ؟!

أجابه (رأفت) بصوته المرتجف :

ـ نعم .. نفس الرجل .. نفس الوجه النحيل ، والنظرات الحادة المخيفة ، ولكنه كان يحمل سكينًا هذه المرة .

التقى حاجبا الرجل ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ سكينًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، ومسح وجهه بيده ، وكأنما يريد أن يمحو ما بذاكرته ، قبل أن يقول ، وقد تضاعفت ارتجافته :

ـ نعم .. سكينًا حادة ، يقطر الدم من نصلها ، على نحو مخيف رهيب .

ثم اعتدل بحركة حادة ، متابعًا فى توتر عصبى ، وهو يحدّق ببصره بعيدًا ، وكأنما يصف ما يراه ، وليس ما رآه من قبل :

ـ كان وجهه النحيل يحمل كل مقت الدنيا ، وعيناه تتألقان بجنون ، والدماء المتساقطة من سكينه تصنع بركة صغيرة من الدم عند قدميه ..

وقلب كفيه ، وهو يضيف فى ارتياع :

ـ عم (عامر) لم يبد أى اهتمام ، وكذلك رفاقى ، وكل هذا كان يؤكد أن ما أراه مجردّ وهم .. هلاوس كما وصفتها ، وعلى الرغم من هذا فقد اندفعت إلى حجرة الأستاذ (ماهر) ، و ... ، و ...

ارتبك بشدة ، فمال الدكتور (ثروت) على أذنه ، قائلاً :

ـ وماذا يا أستاذ (رأفت) .. تحدّث ؟!

هزّ (رأفت) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

ـ الباب كان مغلقًا ، والكل اعتبرنى مجنونًا كالمرة السابقة .. حتى (نجوى) نفسها ، بكت من أجلى ، والأستاذ (ماهر) طلب منى أن أقوم بإجازة طويلة ، حتى تهدأ أعصابى ، وأستعيد سيطرتى عليها .

وأخفى وجهه بين كفيه ، وبدا وكأنه ينتحب ، وهو يتابع :

ـ لقد انتهى أمرى ، وضاع مستقبلى ، و ...

قاطعه الدكتور (ثروت) فى حزم :

ـ ليس إلى هذا الحد .

هتف (رأفت) :

ـ أى حد ؟! لقد كانت حجرة الأستاذ (ماهر) خالية ، وبقعة الدم لم يكن لها أثر .. كل هذا كان فى رأسى فحسب .

صمت الدكتور (ثروت) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ هذا لا يعنى الجنون .

قال (رأفت) بصوت أشبه بالبكاء :

ـ ما الذى يمكن أن يعنيه إذن ؟!

تنهّد الرجل ، مغمغمًا :

ـ ربما يعنى الكثير .

تراجع فى مقعده ببطء ، وبدا وكأنه غارق فى أفكاره بعض الوقت ، قبل أن يعتدل دفعة واحدة ، ويقول :

ـ فى عام ١٩٤١م ، كان هناك شاب هولندى عادى ، يُدعى (بيتر هيركوس) ، يعاون والده فى طلاء بناء من أربعة طوابق ، عندما زلت قدمه ، وسقط من الطابق الرابع على رأسه ، فتم نقله على نحو عاجل إلى المستشفى ، الذى قضى فيه بعض الوقت فى غيبوبة عميقة ، أفاق منها ليكشف أن عقله قد اكتسب موهبة من نوع خاص جدًا .

نجح هذا القول فى جذب اهتمام (رأفت) ، الذى نهض جالسًا على طرف الأريكة ، وهو يتساءل فى لهفة :

ـ أى نوع ؟!

أجابه الرجل :

ـ لقد اكتسب عقله قدرة مدهشة ، على معرفة ماضى كل ما يلمسه أو يحيط به .. كان يلمس الشىء ، فتتدفق كل المعلومات عن تاريخه إلى عقله .. باختصار ، اكتسب الشاب شفافية مذهلة ، جعلت إدارة (سكوتلانديارد) ، أشهر دائرة بوليسية فى العالم أجمع ، تعترف بموهبته .. بل وتستعين به فى حل غموض بعض القضايا الكبرى ، ولقد حقق نجاحات مبهرة ، جعلت عدة هيئات بوليسية أخرى تستعين به ، ليحقق عدة انتصارات رائعة أخرى(*) .

(★) حقيقة .

ردَّد (رأفت) فى انبهار :

ـ حقًّا ؟!

ثم انتبه فجأة إلى ما يقصده الدكتور (ثروت) بحديثه ، فتساءل فى توتر :

ـ هل .. هل تعتقد أننى أيضًا قد ..

قاطعه فى حزم :

ـ ليس بالضرورة .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن من المؤكَّد أنه هناك شىء ما ؛ فأنت لم تلمس تلك الأشياء ، قبل أن تظهر أمامك تلك الرؤى .

هزَّ (رأفت) رأسه ، قائلاً فى توتر :

ـ لم أفهم ما تعنيه .

تطلَّع الرجل إليه مباشرة بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ إننا نحتاج إلى بعض التحريات الصحفية .

سأله (رأفت) فى حيرة :

ـ عن ماذا ؟!

مال الرجل نحوه كثيرًا ، وهو يجيب :

ـ عن تاريخ مقر الجريدة الجديد .

وكانت مفاجأة ..

* * *

حدّق الأستاذ (ماهر) طويلاً فى وجه (رأفت) ، فى دهشة مستنكرة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ اسمع يا (رأفت) .. لست أنكر أنك واحد من أفضل المحررين فى الجريدة ، ولكن هذا لا يعنى أن تضيع وقتنا وجهدنا ، بسبب هلاوس سخيفة .

عضّ (رأفت) شفتيه ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول :

ـ ليست هلاوس يا أستاذ (ماهر) .. الدكتور (ثروت) يقول : إنه من المحتمل أن ..

قاطعه رئيس التحرير فى حدة :

ـ الدكتور (ثروت) هذا أكثر جنونًا منك .

اتسعت عينا (رأفت) ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ أكثر جنونًا ؟!

صاح رئيس التحرير :

ـ بالتأكيد .. أنت ترى خزعبلات ، وهو يعطيك تفسيرات هزلية لها ، وعلينا نحن أن نبذل أنفسنا فى سبيل تخريفكما هذا .

ثم ارتفع صوته أكثر ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لن نضيع دقيقة واحدة ، فى فحص تاريخ مقرنا الجديد هذا .. هل تفهم ؟! لن نضيع لحظة واحدة .

قالها ، واستدار مندفعًا إلى حجرته فى حدة ، وصفق بابها خلفه فى عنف ، فتنحنح عم (عامر) وغمغم فى حرج :

ـ معذرة يا ولدى .. أنت تعلم كم هو عصبى المزاج .

تمتم (رأفت) فى غضب :

ـ وضيق الأفق .

ربّت (أسعد) على كتفه من الخلف ، قائلاً :

ـ اطمئن يا صديقى .. هذا ليس عملاً رسميًا ، ولم يكن يحتاج إلى موافقة رئيس التحرير .

التفت إليه (رأفت) فى تساؤل ، قبل أن تهتف (نجوى) فى حماسة :

ـ سنتولَّى هذا الأمر بأنفسنا .

هتف فى لهفة :

ـ حقًّا ؟!

أجابته بنفس الحماسة :

ـ بالتأكيد .. هذا واجبنا ..

أضاف (أسعد) ، وقد انتقل إليه حماسها :

ـ سنبحث ملفات البناية ، ونسأل الجيران ، والبوَّاب ، والمحال التجاريةِ فى المنطقة .. سنفعل كل شىء ممكن ، حتى نقدِّم لك ملفًا كاملاً لهذا المقر .

ارتفع حاجباه فى تأثُّر ، وهو يغمغم :

ـ الواقع أننى .. أننى ..

« أنت يا أستاذ .. »

انطلق هتاف الأستاذ (ماهر) من خلفه ، فى غضب هادر ، فالتفت إليه ، قائلاً فى حدة :

ـ ماذا هناك يا أستاذ (ماهر) ؟!

صاح به رئيس التحرير فى غضب :

ـ وجودك هنا يفسد عمل الآخرين ، ويشغلهم بالتفكير فى رواياتك الهستيرية ، عن القيام بعملهم ، والجريدة لايمكن أن تصدر بعد موعدها الأسبوعى المعروف .

سأله (رأفت) فى عصبية :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

صاح به فى حدة :

ـ يعنى أنه من الأفضل ، لك ولنا ، أن تحصل على إجازة أخرى ، حتى يستقر عقلك ، وتمضى فترة النقاهة المناسبة .

شهقت (نجوى) فى ذعر ، وانعقد حاجبا (أسعد) فى شدة ، فى حين احتقن وجه (رأفت) ، وهو يقول :

ـ أستاذ (ماهر) .. هل تمهِّد لفصلى ؟!

صاح رئيس التحرير فى حدة :

ـ أنا لم أتحدَّث عن الفصل .. فقط كنت أتحدَّث عن إجازة مرضية .

هتف (رأفت) فى عصبية :

ـ ولماذا إجازة ؟! أنا مستعد لتقديم استقالتى فورًا .

شهقت (نجوى) مرة أخرى ، وصاحت وهى تندفع نحوه :

ـ لا يا (رأفت) .. ليس هناك داع للاستقالة .

هم بالانفجار فى وجه رئيس التحرير ، ولكنها لكزته فى جنبه ، مستطردة :

ـ إنه أمر مؤقّت فحسب .

احتقن وجه (رأفت) أكثر ، وتطلّع إلى عينى الأستاذ (ماهر) فى تحد عصبى ، فقال هذا الأخير ، وهو يشيح بوجهه :

ـ أتعشّم هذا .

واستدار عائدًا إلى حجرته ، فى خطوات سريعة عصبية ، و ...

وانعقد حاجبا (رأفت) فى شدة ، ووثب قلبه بين ضلوعه فى عنف ، وهو يحدّق فى موطئ قدمى الأستاذ (ماهر) ..

كانت كل قدم تترك خلفها أثرًا من الدم ، الذى يتقاطر من حذائه ، على نحو عجيب ..

وعلى الرغم من أنه قد رأى هذا فى وضوح شديد ، ككل الرؤى السابقة ، لم ينبس (رأفت) ببنت شفة هذه المرة ..

فقط عضّ شفتيه ، وهو يتابع آثار الدم على الأرضية ، حتى أغلق الأستاذ (ماهر) باب حجرته خلفه ، فأغلق هو عينيه وفتحهما ، وحدّق مرة أخرى فى أرضية المكان ..

ولكن آثار الأقدام الدموية بقيت واضحة .. للغاية ..

وزفر (رأفت) فى عصبية ، وهو يلملم أوراقه ، قائلاً :

ـ سأنصرف .

تبادل رفاقه نظرة قلقة ، وقال (أسعد) :

ـ لاداعى لهذا يا (رأفت) .. الأستاذ (ماهر) لم يكن يقصد ما قال .

كان من الواضح أن أحدًا غيره لم ير تلك الآثار الدموية ، مما جعله يقول فى عصبية أكثر :

- أعلم هذا .. أعلم هـذا .. إننـى أحتـاج إلـى الانصـراف فحسب .

هتفت به (نجوى) فى قلق :

- هل آتى معك ؟!

استدار إليها بابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

- كلاً .. أكملى عملك فحسب .

سأله رفيق آخر :

- وماذا عن مقالك الأسبوعى ؟!

توقَّف لحظة مفكّرًا ، قبل أن يجيبه فى حذر :

- اكتب أن الأستاذ (رأفت) يعتذر عن مقاله الأسبوعى .

واستدار يتطلَّع إلى الأرضية فى توتر ..

وفى هذه المرة ، لم يكن هناك أثر للدماء ..

أدنى أثر ..

لذا فقد عاد ببصره إلى رفيقه ، مضيفًا فى توتر عنيف :

- لمرضه .



قالها ، وغادر المكان فى اندفـاع ، تاركًا رفاقه خلفه ، وقد خيَّم عليهم صمت مطبق ثقيل ، قطعته (نجوى) ، وهى تقول فى حدة :

ـ هل سنتخلَّى عنه بهذه البساطة ؟!

قال (أسعد) فى حزم :

ـ مطلقًا .

ثم استدار إلى الباقين ، مستطردًا فى صرامة :

ـ زميلنا فى محنة يا رفاق .. هل سنقف إلى جواره ، أم سنتخلى عنه ؟! أريد ردًّا صريحًا مباشرًا .. وفوريًّا .

وارتفعت كل الأيادى فى آن واحد ، معلنة الموافقة .. الجماعية ..

* * *

لم يشعر (رأفت) في حياته كلها بالتوتر ، مثلما شعر به فى ذلك اليوم ، وهو يتقلب فى فراشه ، محاولاً اجتذاب النوم ، على الرغم من تناوله لذلك العقار المهدّئ ، الذى وصفه له الدكتور (ثروت) ، والذى نصحه بضرورة قصر استخدامه على الحالات القصوى فقط ..

كان ما رآه اليوم قد أقنعه بأنه على حافة الجنون بالفعل ..

وهذا ما أصبح يشعر به ..

نظرية الحالة العقلية الفائقة هذه لم تعد تقنعه ..

إنها نوع من الهلاوس ، كما وصفها الدكتور (ثروت) فى البداية ، بتلقائية فطرية ، وهو يشرح حالته ..

وشعر بغصة فى حلقه ..

ليته لقى مصرعه فى الحادث ..

ليته مات ، ودُفِنَ ، وانتهت حياته كصحفى ، والكل يذكر ذكاءه وبراعته ، ومقالاته الساخنة ، والتى كثيرًا ما أثارت الجدل ، فى الساحة الأدبية والسياسية ..

الآن أصبح الكل يعتبره مخبولاً ، مختلَّ العقل ..

حتى رئيس التحرير ، الذى انتقاه من بين كل الصحفيين ؛ ليجعله المسئول الأوَّل عن قسم التحقيقات ، يطالبه اليوم بأن يأخذ إجازة مفتوحة ، حتى يستعيد اتزانه العقلى ، وتوازنه النفسى ..

ويا له من موقف ، لم يتخيَّل يومًا حدوثه !!

ويا لها من مرارة ، تلك التى يشعر بها ، فى كيانه كله !

أهكذا تكون نهاية مستقبله ؟!

أهكذا تنتهى سمعته ؟!

استعاد ذهنه انتصاراته الصحفية السابقة ، ومقالاته الملتهبة ، ثم مرَّ بالحادث ، وفقدان الوعى ، وما تبع هذا من اضطرابات ، وهلاوس ، حتى توقَّف عند مشهد أمه ، وهى تستقبله فى قلق ، لدى عودته المبكرة من عمله ، ورعايتها الحانية له ، حتى أوى إلى فراشه ، وتظاهر بالنوم ، لتنسحب هى إلى حجرتها ..

ودون أن يدرى ، سالت من عينيه الدموع ..

دموع ساخنة ملتهبة ، سالت على وجنتيه ، وتساقطت على الفراش ، فأغلق عينيه فى قوة ، وتمتم :

ـ لماذا يا إلهى ! لماذا ؟!

ويبدو أن دموعه قد أفرغت الكثير من انفعالاته وتوتره ، أو أنه ذلك العقار المنوِّم ، الذى جعل جسده يسترخى أخيرًا ، وألقاه فى نوم عميق ..

عميق ..

عميق بلا قرار ..

كانت ساعة متأخرة للغاية ، عندما أوقف سيارته أمام البناية ، التى تضمّ مقر الجريدة الجديد ..

كل شىء كان هادئًا فى قلب الليل ، فى وسط العاصمة ..

والبناية كلها كانت نائمة ..

وفى هدوء ، صعد فى درجات السلم ..

لم يستقلّ المصعد كالمعتاد ..

ولم يدر حتى لماذا ؟!

المهم أنه راح يصعد فى درجات السلم ..

ويصعد ..

ويصعد ..

وعندما بلغ المقر الجديد ، كان بابه مفتوحًا ..

والعجيب أنه لم يتساءل عن كونه كذلك ..

ولم يشعر بأدنى خوف أو قلق ..

فقط دلف إليه ، وتطلَّع إلى المكاتب الخالية ، وإلى مكتبه ..

ثم أدار عينيه إلى نتيجة كبيرة على الجدار ..

نتيجة تشير أوراقها إلى الخامس من يناير ..

وفى أعماقه ، بدأ يشعر بالقلق ..

قلق مبهم عجيب ، سرى فى كل خلية من جسده ، وتصاعد إلى قلبه ، فخفق فى قوة ، وراح يرتجف بين ضلوعه ، على نحو جعله يتلفت حوله فى عصبية ، قبل أن يتوقَّف بصره عند باب حجرة الأستاذ (ماهر) ..

وعلى الرغم من بابها المغلق ، شعر بأن شيئًا ما يحدث هناك ..

شىء شرير ..

مخيف ..

رهيب ..

وعلى الرغم من ذلك الخوف ، الذى سرى فى عروقه ، اندفع نحو حجرة رئيس التحرير ، وفتحها بحركة حادة ..

ثم انتفض جسده كله ..

وبمنتهى العنف ..

وتجمَّدت عيناه فى محجريهما ، وهو يحدِّق برعب فى عينى ذلك النحيل ، الذى التفت إليه بحركة حادة ، ورفع سكينه ، التى تتقاطر منها الدماء الساخنة اللزجة ..

وفى تلك اللحظة فقط ، انتبه (رأفت) إلى أنه يخوض فى بحر من الدم ..

دماء ملأت الحجرة كلها ، وأغرقت قدميه ..

واتجه ذلك القاتل النحيل نحوه ، وهو يطلق صرخة عالية ..

صرخة حادة ، وحشية ، رهيبة ..

صرخة امتزجت برنين الهاتف ، وهو يتراجع مذعورًا ..

ثم تلاشت الصرخة ، وتعالى رنين الهاتف ..

وهبَّ (رأفت) من فراشه مذعورًا ، وحدَّق فى حجرته بذهول ، وهو يلهث فى عنف ، ورنين الهاتف يتواصل فى إلحاح أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

والتقط سمّاعة الهاتف ، وهو يقول لاهثًا :

ـ من المتحدِّث ؟!

أتاه صوت (نجوى) مفعمًا بالانفعال ، وهى تهتف :

ـ (رأفت) .. لن تصدِّق ما توصلنا إليه .

اعتدل بحركة حادة ، وهو يسألها فى توتر :

ـ وما الذى توصَّلتم إليه ؟!

أسرعت تخبره ما لديها ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

فما توصَّل إليه رفاقه كان مذهلاً ..

وبكل المقاييس .

★ ★ ★

٤ـ الجريمة ..

« جريمة قتل ؟! »

نطق الدكتور (ثروت) الكلمة فى بطء ، يحمل كل الاهتمام ، وهو يتطلَّع إلى عينى (رأفت) مباشرة ، فهزَّ هذا الأخير رأسه فى توتر ، وقال :

ـ نعم .. الرفاق بحثوا جيِّدًا تاريخ المقر ، والبناية كلها ، وكشفوا أنه هناك جريمة قتل حدثت ، فى إحدى الشقق الثلاث ، التى يحتلها المقر الجديد للجريدة ، ولكن هذا منذ خمسين عامًا .

سأله الرجل فى اهتمام أكثر :

ـ وما نوع الجريمة ؟!

ازدرد (رأفت) لعابه ، فى شىء من التوتر ، وقال :

ـ مهندس يدمن المخدرات ، أصابته نوبة من الجنون المؤقَّت ، فقتل زوجته وأبناءه ، ثم انتحر .

التقى حاجبا الدكتور (ثروت) بضع لحظات ، فى تفكير عميق ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ارتياح ، وهو يقول :

ـ هذا يفسّر كل شىء .

سأله (رأفت) فى توتر :

ـ يفسّر ماذا ؟!

أجابه فى حماسة :

ـ تلك الرؤى التى تراودك ، كلما ذهبت إلى مقر الجريدة الجديد ..

ثم مال نحوه ، وتألّقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ إنك تشاهد ما حدث فى المكان ، منذ خمسين عامًا .

كان هذا ما توقّعه (رأفت) بالضبط ، منذ أخبرته (نجوى) بأمر جريمة القتل البشعة التى وقعت فى ماضى المقر ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تراجع بحركة حادة ، كما لو أصابته العبارة بصدمة عنيفة ، واتسعت عيناه فى ذعر ، جعل الدكتور (ثروت) يسأله فى قلق :

ـ ما الذى يخيفك ؟!

هتف فى عصبية :

ـ إنك لم تر ما أراه .

قال الدكتور (ثروت) فى حماسة :



ـ ولكنها هبة لا يتمتّع بها الكثيرون .. لقد انجلت حواسك ، وأصبحت قادرًا على رؤية التاريخ نفسه .. ألا تدرك مايمكن أن يعنيه هذا ؟! إنك حالة نادرة ، من حالات التألّق العقلى الفائق .. حالة لم نشهد مثلها فى عالمنا العربى قط .

هتف (رأفت) فى مرارة :

ـ ولماذا أنا ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ ولماذا تسأل ؟! الله (سبحانه وتعالى) منحك هبة

خاصة من هباته (عزَّ وجلَّ) ، اقبلها إذن ، ولا ترفض عطية الخالق ، الذى يهب من يشاء بغير حساب .

دفن (رأفت) وجهه بين كفيه ، وهو يقول :

- تلك الرؤى تعذبنى .

ربَّت الرجل على كتفه ، قائلاً :

- ولكن من المؤكَّد أن فيها خيرًا ما .

رفع عينيه إليه ، قائلاً فى مرارة :

- أى خير فى عذاب كهذا ؟!

نهض الدكتور (ثروت) ، والتقط نفسًا عميقًا ، ملأ به صدره ، ثم أفرغه على هيئة زفرة حارة ملتهبة ، قبل أن يقول بوقاره ورصانته المعهودين :

- اسمع يا أستاذ (رأفت) .. أنت شاب ذكى ، وصحفى نابه نشيط ، إلا أن سنوات العمر العشر ، التى تفصل بينى وبينك ، منحتنى خبرة خاصة فى الحياة .. خبرة علمتنى أن اللَّه (سبحانه وتعالى) ، عندما يمنح شخصًا هبة ما ، تفوق ما يملكه أقرانه من البشر ، فهو لا يمنحه إياها ليعذبه ، ولا حتى ليستفيد بها وحده .. إنه يمنحه إياها من أجل هدف ما .. هدف بعيد المدى ، لا يمكن أن ندركه نحن بعقولنا المحدودة ، مهما بلغت عبقريتها .

وتطلَّع إلى (رأفت) مباشرة ، وهو يضيف :

- صدقنى يا ولدى .. ما يأتينا من الخالق (عزَّ وجلَّ) خير دومًا .. ونحن وحدنا ، يمكننا أن نزرع فيه الشر ، لو نجح الشيطان فى إغوائنا .

« ما يأتينا من الخالق (عزَّ وجلَّ) خير دومًا ..

ظلَّت العبارة تتردَّد فى ذهن (رأفت) بعد أن غادر عيادة الدكتور (ثروت) ، وطوال الطريق إلى منزله ..

وعلى الرغم من كل ما يمرّ به ، شعرت نفسه بارتياح غامر ، مع ذكر الله (سبحانه وتعالى) ، فتنهَّد مغمغمًا :

- قدَّر اللَّه ، وما شاء فعل .

مرة أخرى راح يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، بنفس اللحن الذى كان يردِّده ليلة الحادث ..

ولأوَّل مرة أيضًا يتخذ نفس الكوبرى العلوى ، فى طريق عودته إلى المنزل ..

وعندما مرَّ بموضع الحادث ، وجد نفسه يتمتم بالعبارة ذاتها :

- ما يأتينا من الخالق (عزَّ وجلَّ) هو خير حتمًا .

ولم يدر لماذا تذكَّر (نجوى) فى هذه اللحظة ، وشعر بقلبه يخفق بين ضلوعه ، وبدت له صورة وجهها الباسم الرقيق أمام عينيه ، فتمتم :

- آه يا (نجوى) .

لم يكد يهبط من الكوبرى ، إلى الطريق المعتاد ، حتى أوقف سيارته على جانب الطريق ، والتقط هاتفه المحمول ، وطلب رقم (نجوى) ، ولم يكد يسمع صوتها ، حتى قال ، بكل حرارة الحب فى أعماقه :



- (نجوى) .. هل يمكننى أن آتى لزيارتكم الليلة .

ورقص قلب (نجوى) ..

بمنتهى الحب ..

* * *

انطلقت زغرودة عالية ، من بين شفتى والدة (رأفت) ، قبل أن تحتضن (نجوى) بكل حب وحنان الدنيا ، هاتفة من وسط دموع فرحتها :

- ما أجمل عروس ابنى .. خطبتكما اليوم هى أسعد لحظة عشتها ، فى حياتى كلها .

قبّلتها (نجوى) فى حب ، قائلة :

- بل هى أسعد لحظة فى حياتى أنا يا أمى .

أطلقت الأم زغرودة عالية أخرى ، فابتسم (رأفت) ، قائلاً :

- كفى يا أمى .. صحتك لن تحتمل كل هذا .

هتفت الأم :

- صحتى على خير ما يرام .. دعك أنت منى ، وانشغل بعروسك عنى .

كان الحفل بسيطًا مبهجًا بحق ، وراح (رأفت) و (نجوى) يتبادلان الأحاديث المرحة مع رفاقهما ، وضحك (أسعد) ، وهو يقول :

- حذار من زوج المستقبل يا (نجوى) .. موهبته الجديدة تجعله قادرًا على معرفة ماضيك كله .

هتفت ضاحكة :

- فليكن .. ليس لدى ما أخفيه .

ولكن الدعابة لم ترق لـ (رأفت) ، فقال فى شىء من الصرامة :

- دعونا لا نتحدث عن هذا :

ربَّتت (نجوى) على يده مهدِّئة ، وهى تقول :

- نعم .. دعونا لا نفعل .. هناك الكثير لتفعلوه هنا .

ثم أشارت بيدها ، وغمزت بعينها ، مضيفة :

- أمى ستفتتح البوفيه الآن .

انطلقت صيحات رفاقهما مرحة مهلِّلة ، وهم ينطلقون إلى البوفيه ، فمالت هى على أذن (رأفت) ، هامسة :

- لا تجعل هذا ينتزع فرحتنا .

تنهَّد مغمغمًا :

- اطمئنى .

وعلى الرغم من قوله ، فقد سألها فى توتر :

- لماذا لم يحضر الأستاذ (ماهر) حفل خطبتنا ؟! لقد دعوته بنفسى !

ربَّتت على يده مرة أخرى ، قائلة :

- لاتجعل هذا يقلقك .. الأستاذ (ماهر) اعتذر عن الحضور ؛ لأن محاميه يحمل إليه بعض الأوراق المهمة جدًّا ، بخصوص قضية الإرث ، التى رفعها على زوج عمته الراحلة ، ولقد تحدَّدت جلسة المحاكمة صباح الغد ، ولا يمكنه تأجيل موعد المحامى ، ولكنه وعد بالحضور ، إذا ما أنهى عمله مبكرًا .

غمغم :

- هذا أفضل .

اندفع (أسعد) نحوهما فى هذه اللحظة ، وهو يهتف فى حرارة :

- هيا .. أمك تصرّ على أن تفتتحا البوفيه بنفسيكما ، ونحن نتضوَّر جوعًا .. هيا بالله عليكما .

ضحكت (نجوى) ، قائلة :

- هيا يا (رأفت) .. قبل أن يلتهموننا نحن .

تبعها (رأفت) وهو يرسم على وجهه ابتسامة متوترة ، واستقبلته والدة (نجوى) ، وهى تهتف :

ـ هيا يا عريس .. اقطع الكعكة مع عروسك .

وناولته سكينًا طويلاً حادًا لقطع الكعكة ..

وانتفض جسد (رأفت) فى عنف ، وهو يلتقط السكين ، ولم تفت انتفاضته (نجوى) ، التى أدركت على الفور سر اضطرابه ، فأسرعت تلتقط السكين من يده ، وهى تهتف مصطنعة المرح :

ـ لا .. سأقطعها أنا .. النساء أولاً ..

وعندما وقف (رأفت) إلى جوارها ، وهى تقطع الكعكة ، شعرت بجسده المرتجف ، ووجدت نفسها تتساءل : تُرى هل عاودته الرؤيا فى تلك اللحظة أيضًا ؟!

هل ؟!

* * *

« كلاً .. لم يحدث أى شىء .. »

زفر (رأفت) فى توتر شديد ، وهو ينطق العبارة ، أمام الدكتور (ثروت) ، الذى سأله فى اهتمام :

ـ ماذا أثار توترك إذن ؟!

هزَّ (رأفت) كتفيه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. رؤية السكين ذكرتنى بما أراه ، فى مقر الجريدة الجديد ، وبالذات ما رأيته فى حلمى ، و ....

قاطعه الدكتور (ثروت) باهتمام قلق :

ـ حلمك ؟! إنك لم تتحدَّث عن أى حلم ..

مطَّ شفتيه ، قائلاً :

ـ إنه مجرَّد حلم .

بدا صوت الدكتور (ثروت) عصبيًا ، وهو يقول :

ـ لقد اتفقنا منذ البداية على أن تخبرنى بكل التفاصيل ، مهما بدت لك تافهة .. هذا مهم للغاية فى بحثنا .

بدا الضيق والضجر على وجه (رأفت) ، وهو يقول :

ـ لم أتصوَّر أن مجرَّد حلم يمكن أن ...

قاطعه الرجل بنفس العصبية :

ـ فليكن .. صف لى ما رأيته فى حلمك .

ازدرد (رأفت) لعابه فى توتر بالغ ، ثم راح يروى له حلمه المخيف ..

وباهتمام يفوق الحد ، استمع إليه الدكتـور (ثروت) ، حتى انتهى من روايته ، فالتقط الرجل نفسًا عميقًا ، وغمغم :

ـ إذن فقد رأيت التاريخ بوضوح .

قال (رأفت) فى إصرار :

ـ إنه مجرد حلم .

مال الدكتور (ثروت) نحوه ، وسأله فى اهتمام :

ـ هل أخبرك رفاقك عن التاريخ ، الذى ارتكبت فيه تلك الجريمة القديمة ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، قائلاً :

ـ ليس بالتحديد .. لقد حدثت منذ نصف قرن تقريبًا .

قال الدكتور (ثروت) فى حزم :

ـ ليس تقريبًا .

ثم أشار إلى النتيجة المعلَّقة على جدار عيادته ، مضيفًا :

ـ إننا فى التاسع من ديسمبر الآن .

تطلَّع (رأفت) إلى النتيجة فى حيرة ، قائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجابه الدكتور (ثروت) :

ـ يعنى أن الذكرى الخمسين لجريمة القتل ستحين ، بعد أقل من شهر واحد .

قال (رأفت) فى عصبية :

ـ مازلت أسأل : ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تراجع الدكتور (ثروت) فى مقعده ، وقال :

ـ يمكن أن يعنـى الكثير ، وخاصـة عندمـا راودتـك تلـك الرؤى ، مع مرور نصف قرن على الجريمة .

عادت الحيرة تملأ نفس (رأفت) ، وهو يحدِّق فى وجه الطبيب النفسى طويلاً ، قبل أن يهبَّ من مقعده ، قائلاً فى حدة :

ـ لقد أعيانى التفكير فى هذا الأمر .. فليحدث مـا يحدث .. سألقى كل هذا خلف ظهرى ، وأحيا حياتى كما كنت أفعل سابقًا .

قال الدكتور (ثروت) فى قلق :

ـ لا يمكنك أن تنسحب بهذه البساطة .

قال (رأفت) ، فى حدة أكثر :

ـ بل يمكننى أن أنسحب فورًا ؛ لأننى لم أعد أحتمل كل ما يحدث .. إننى أستعد لبدء حياة جديدة .. أستعد للزواج والاستقرار ، وتكوين أسرة جديدة ، ولست مستعدًا أبدًا لإفساد كل هذا ، بسبب أمور لا يمكننى حتى فهمها أو هضمها .

نهض الدكتور (ثروت) بدوره ، وهو يقول :

ـ أستاذ (رأفت) .. لا تهدر فرصة نادرة كهذه .. أرجوك .

لوَّح (رأفت) بذراعه ، هاتفًا :

ـ أية فرصة ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ فرصة دراسة حالتك هذه .. إننا نحتاج إلى إجراء بعض الفحوص ، و ..

قاطعه (رأفت) ، وهو يندفع نحو باب الحجرة ، قائلاً فى غضب :

ـ آسف .. لست فأر تجارب ، ولن أضع نفسى فى هذه الدوَّامة العلمية السخيفة أبدًا .

لحق به الدكتور (ثروت) ، وأمسك كتفه فى قوة ، وهو يقول :

ـ أستاذ (رأفت) .. أرجوك .. إن أكبر خطأ وقع فيه معاصرو ذلك الهولندى (بيتهيركوس) ، هو أنهم لم يحاولوا دراسة ظاهرته العقلية علميًا ، وربما لو فعلوا ،، لقفز علم النفس قفزة مدهشة ، يعلم اللّه (سبحانه وتعالى) وحده إلى أين كانت ستقودنا .

هتف (رأفت) فى عصبية شديدة :

ـ كل هذا لا يعنينى .. فليذهب علم النفس كله إلى الجحيم .. المهم أن أحيا حياة طبيعية ، وليس كفأر تجارب .

تشبث به الرجل مرة أخرى ، وهو يقول فى لهجة ، أقرب إلى الضراعة :

ـ إننا أمام حالة عقلية فائقة ، ولا ينبغى أن يسمح لك ضميرك بإهدارها ، دون أن يستفيد منها العالم كله .

كلماته الأخيرة جعلت قلب (رأفت) يرتعد وسط ضلوعه ، وأشعلت نيران ضميره ، على نحو جعله يتوقَّف ، ويغمض عينيه ، ويتمتم فى مرارة :

ـ ولماذا أدفع حياتى ، ثمنًا لفائدة العالم ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ كل العظماء ، الذين نقرأ عنهم فى كتب التاريخ ، شاركوك هذا المصير .. إنه قدرهم .

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى همس :

ـ وقدرك .

مرة أخرى ، ارتعد قلب (رأفت) بين ضلوعه ، فاستدار يتطلّع إلى الدكتور (ثروت) فى مرارة ، مغمغمًا :

ـ فليكن .

ثم استدرك ، مستعيدًا صرامته وعصبيته :

ـ ولكن ليس قبل الخميس الأوّل من يناير .

تراجع الطبيب النفسى ، متسائلاً فى حيرة :

ـ وما الحكمة فى هذا ؟!

أجابه فى عصبية أكثر :

ـ لأن هذا تاريخ حفل زفافى .

حدّق الرجل فى وجهه لحظة بدهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، قائلاً :

ـ اتفقنا .. سنعتبرها إجازة قصيرة ، تمنحك فرصة لالتقاط أنفاسك ، وتهدئة أعصابك .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، وقد تلاشت ابتسامته :

ـ وتمنحنى أنا فرصة إجراء المزيد من التحريات ، حول تلك الجريمة القديمة .. فمن يدرى ؟!

ومن جديدة ، طرح السؤال ذاته نفسه ..

من يدرى ؟!

من ؟!

* * *

على الرغم من كل الاستعدادات ، التى استغرقت أسبوعًا كاملاً ، ومن أن كل رفاق العروسين ، قد شاركوا فى الأمر ، إلا أن حفل زفاف (رأفت) و (نجوى) لم يبدأ ، إلا قبيل الحادية عشرة مساءً بدقائق قليلة ..

ولقد قطع العروسان ممر الفندق الطويل ، فيما يقرب من ساعة كاملة ، فى زفة لم تشهد المنطقة مثلها منذ فترة طويلة ..

وعـندما استقرّ الاثنـان على مقعديهما ، وحولهمـا قوس مدهش مـن الزهـور ، كـانت عقـارب السـاعة تشـير إلـى منتصف الليل تقريبًا ..

ووسط زغاريد الفرح ، وعبارات التهنئة ، والتعليقات المرحة ، مال (رأفت) على أذن عروسه ، يهمس :

ـ الأستاذ (ماهر) لم يحضر الليلة أيضًا .

ضحكت قائلة :

ـ لقد أرسل أكبر باقة زهور هنـا ، وأعطـى الكل إجازة لحضور الحفل ، على الرغم من أن العدد الأسبوعى سيصدر بعد غد .. لقد تولّى الأمر كله بنفسه ، حتى يتيح لنـا حفل زفاف جيّدا .

ثم ابتسمت ، وهى تتطلّع إليه بدلال ، مستطردة :

ـ الواقع أنه يستحق الشكر .

تطلّع إلى وجهها الجميل ، وثغرها الباسم الرقيـق ، قبل أن يبتسم فى حب ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

توالت فقرات الحفل الرائعة ، على نحو جميل مبهر ، وراح الكل يتسابق على مجاملـة الصحفى النابـه ، وراح الوقت يمضى فى سرعة واندمج (رأفت) و(نجوى) مـع رفاقهمـا ، وتعالت ضحكاتهما ،قبل أن يعودا إلى مقعديهما ، فهتفت (نجوى) :

ـ رباه ! إنه أسعد يوم فى حياتى .

أجابها بكل فرحة الدنيا :

ـ وأنا أيضًا .

ثم استدار إلى حيث تجلس أمه ، مستطردًا :

ـ هل رأيت كيف كانت أمى تـ ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحـدّق فى أمه ، على نحو جعل (نجوى) تسأله فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟!

أشار إلى أمه ، قائلاً فى توتر :

ـ ما هذه البقعة الكبيرة ، على ثوب أمى ؟!

أدارت عينيها إلى أمه ، متسائلة فى حيرة :

ـ أية بقعة ؟!

توترت كل ذرة فى كيانه ، وهو يحدّق فى بقعة حمراء كبيرة ، على ثوب أمه ، تبدو واضحة وضوح الشمس ، مع لون الثوب الفاتح ، حتى إنه هتف :

ـ مستحيل ألا تريها ؟!

كادت تبكى من فرط قلقها ، وهى تحتضن ذراعه ، قائلة :

ـ رباه ! إنها تلك الحالة مرة أخرى .

زاغت عيناه ، وهو يسألها ، فى شىء من الذعر :

ـ ألا ترينها ؟!

أغلق عينيه فى قوة ، وشعر بجسده كله ينتفض ، وهو يهمس لنفسه :

ـ يا إلهى ! ليس الليلة .. ليس الليلة يا رب .

ربتت (نجوى) على كتفه ، محاولة تهدئته ، دون أن ينتبه الناس إلى ما يحدث ، وهى ترسم على شفتيها ابتسامة متوترة ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين هاتفه المحمول ..

ارتفع على نحو انتزعه من الموقف بغتة ، فانتفض

جسده كله فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فحدّق فى أمه ، بكل توتر الدنيا ..

ولم تكن هناك أية بقع على ثوبها ..

أية بقع على الإطلاق ..

وتواصل رنين الهاتف المحمول ..

وتواصل ..

وتواصل ..

وفى حركة متوترة ، التقط الهاتف ، وقال فى عصبية :

ـ أيًا كنت يا من تتحدَّث .. أنا الآن فى حفل زفـ ..

قاطعه صوت الدكتور (ثروت) ، وهو يقول :

ـ إنه أنا يا أستاذ (رأفت) .

شعر (رأفت) بتوتر أكثر ؛ لمجترّد ستماع صوت طبيبه النفسى ، فى هذه اللحظة ، ولكنه ازدرد لعابه فى عصبية ، وقال :

ـ لماذا لم تأت يا دكتور (ثروت) ؟! لقد تركت لك دعوة زفاف ، و ....

قاطعه الرجل مرة أخرى ، وهو يقول فى انفعال :

- معلومات زملائك عن الجريمة لم تكن دقيقة .

عاوده التوتر البالغ ، وهو يسأله :

- ماذا تعنى ؟!

أجابه بنفس الانفعال :

- ذلك المهندس لم يمسك سكينًا واحدة فى أثناء جريمته .. لقد أطلق الرصاص على زوجته وأطفاله ، ثم نسف رأسه .

عضَّ (رأفت) شفته فى عصبية ، وهو يقول :

- هل يبدو لك هذا الحديث مناسبًا لحفل زفاف ؟!

ارتبك الطبيب النفسى ، وهو يقول فى حرج :

- معذرة ، ولكنَّ هناك أمرًا آخر ، تصوَّرت أنه سيريحك أن تعرفه الآن .

سأله فى عصبية :

- وما هو ؟!

أجابه فى سرعة :

- الجريمة لم تحدث فى الخامس من يناير كما تصوَّرنا ، بل فى السابع عشر من يوليو .

مدَّت (نجوى) يدها فى هذه اللحظة وأغلقت الهاتف المحمول ، ثم قطعت عنه الاتصال ، وهى تقول مبتسمة :

- لن يسرقك أى شىء ، أو أى شخص منى هذه الليلة .

منحها ابتسامة مرتبكة ، وترك أصابعها تعانق أصابعه ، وتبعث فيها الدفء ، وعقله حائر فيما سمعه من طبيبه النفسى منذ لحظات ..

تُرى ما الذى يمكن أن يعنيه كل هذا ؟!

لقد درَّب عقله على تقبُّل فكرة الرؤية الماضية ، على الرغم من عدم اقتناعه بمثل هذه الأمور ، فقط ليوهم نفسه بوجود تفسير لحالته هذه ..

تفسير يخالف الجنون ..

ولكن ما قاله الدكتور (ثروت) ، يقلب الصورة كلها رأسًا على عقب ..

القاتل لم يستخدم سكينًا ..

والجريمة لم تحدث فى الخامس من يناير ..

ما الذى رآه إذن ؟!

من ذلك النحيل القاتل ، الذى يمسك سكينًا يقطر منها الدم ؟!

من ؟!

من ؟!

انتزعته (نجوى) من أفكاره وتوتراته وتساؤلاته ، وهى تهمس فى أذنه :

ـ من الخطأ أن يشرد العريس بأفكاره ، فى حفل زواجه ، بعيدًا عن عروسه .

استدار إليها مبتسمًا ، وهو يقول :

ـ وهل يمكننى هذا ؟!

ضحكت فى دلال ، وهى تهمس :

ـ ما رأيك لو افتتحنا حلبة الرقص بـ ..

قبل أن تتمَّ عبارتها ، التقطت أذناهما جلبة محدودة ، فالتفتا إلى مصدرها معًا ، ورأيا أحد عمال الفندق ، محتقن الوجه ، يحاول لملمة بعض الأكواب من الأرضية ، وهو يقول لأم (رأفت) فى ارتباك :

ـ معذرة يا سيِّدتى .. ألف معذرة .. لقد تعثَّرت ، ولم أقصد هذا ، أبدًا ، و ....

ولم يسمع (رأفت) باقى العبارة ، وهو يحدِّق فى تلك البقعة الحمراء الكبيرة ، على ثوب أمه ، والتى صنعها الشراب ، الذى سكب من العامل ..

(نجوى) أيضًا حدَّقت فى البقعة نفسها بذهول ، قبل أن تقبض أصابعها على أصابع (رأفت) فى قوة ، وهى تقول بصوت مبحوح منفعل :

ـ رباه ! (رأفت) .. لقد رأيت هذا قبل أن يحدث !!

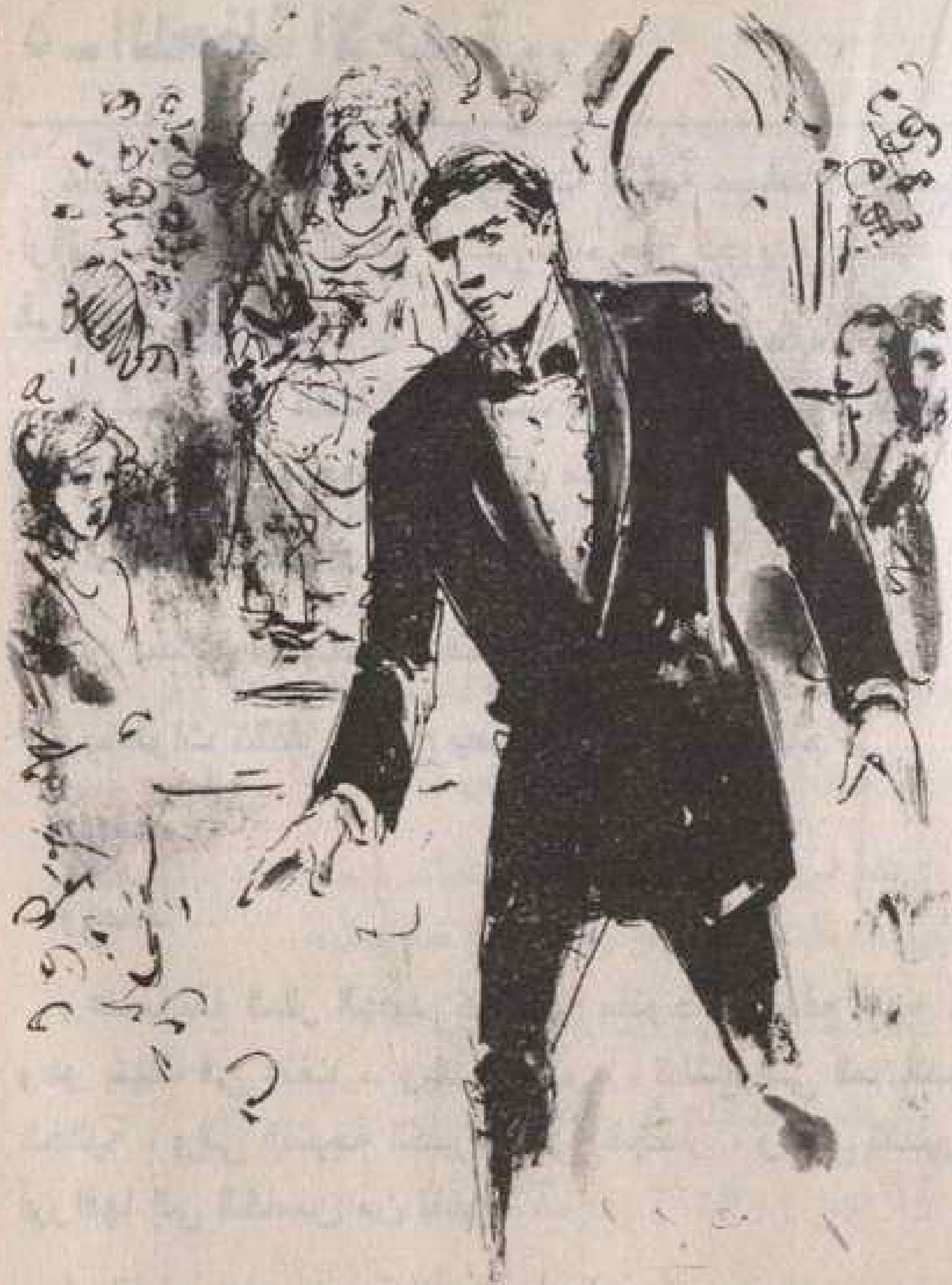
واتسعت عينا (رأفت) عن آخرهما ..

« لقد رأيت هذا قبل أن يحدث .. »

« رأيته قبل أن يحدث .. »

« قبل أن يحدث .. »

احتقن وجهه بشدة ، والعبارة تتردَّد فى رأسه ، وراح عرق غزير يتصبَّب على وجهه فى غزارة ، وهو يحدِّق فيما حوله ، دون أن يرى شيئًا ..



حفل الزفاف كان فى الخميس ، الرابع من يناير ..

ولكن عقارب الساعة تجاوزت منتصف الليل بساعتين كاملتين ..

وهذا يعنى أنهم الآن فى الخامس من يناير ..

فى موعد الجريمة بالضبط ..

وبسرعة مذهلة ، استعاد عقله أحداثًا شتى متفرّقة .

وفى انفعال جارف ، هب من مقعده ، صارخًا :

ـ يا إلهى ! الأستاذ (ماهر) .

ثم أقدم على أغرب شىء يمكن أن يقدم عليـه عريس ، فى حفل زفافه ..

لقد انطلق يعدو ، أمام العيون الذاهلة ..

وبأقصى سرعته .

* * *

٥ ـ اللحظة الأخيرة ..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا ، عندما أوقف سيارته أمام البناية ، التى تضمّ مقر الجريدة الجديد ، فى وسط العاصمة ..

كل شىء كان هادئًا ، فى قلب الليل ، ولكنه وثب من السيارة ، واندفع نحو البناية بكل سرعته ..

ولم يستقل المصعد ..

كان يخشى أن يتعطّل ، فتحدث الكارثة قبل وصوله ..

وبخطوات كالقفز ، راح يصعد فى درجات السلم ..

ويصعد ..

ويصعد ..

وعندما بلغ المقر الجديد كان بابه مفتوحًا ، فاندفع إليه ، وهو يلهث فى عنف .. وبكل توتره ، تطلّع إلى المكاتب الخالية ، وإلى النتيجة الكبيرة على الجدار ، والتى تشير أوراقها إلى الخامس من يناير ..

ثم انقضّ على حجرة الأستاذ (ماهر) ..

واقتحمها فى عنف ..

وتجمّدت عيناه فى محجريهما ، وهو يحدّق برعب فى عينى ذلك النحيل ، حاد القسمات والنظرات ، والذى التفت إليه بحركة وحشية ، وهو يرفع سكينه ذات النصل الكبير الحاد ، ويده الأخرى تقبض على عنق الأستاذ (ماهر) فى شراسة ..

ولكن لم تكن هناك دماء ، تتقاطر من نصل السكين ..

لم تكن هناك أية دماء ..

وبصوت متحشرج مختنق ، هتف الأستاذ (ماهر) فى ذعر :

ـ النجدة يا (رأفت) .. النجدة .

وهنا ترك النحيل عنق الأستاذ (ماهر) ، ثم انقضّ على (رأفت) ، وهو يطلق صرخة عالية ..

صرخة حادة ، وحشية ، رهيبة ..

وارتفعت سكينه إلى أعلى ..

وتراجع (رأفت) بحركة حادة ..

وهوت السكين ..

وشعر (رأفت) بآلام حادة فـى ذراعـه ، ورأى السكين ترتفع مرة أخرى ، والدماء تتقاطر من نصلها ..

وفى هذه المرة ، لم ينتظر حتى تهبط السكين مرة أخرى ..

لقد ارتفعت يده تقبض على معصم النحيل فى قوة ، ثم انقضَّت يده الأخرى على معدته بكل العنف ..

وشهق النحيل شهقة قوية ، امتزجت بما يشبه الزمجرة الغاضبة ، قبل أن يركل (رأفت) فـى معدتـه بكل قوتـه ، ويدفعه إلى الخلف ، ليرتطم بالجدار ، ثم يسقط على وجهه أرضًا ..

واختطف الأستاذ (ماهر) ثقَّالة الورق من سطح مكتبـه ، واندفع بها نحو النحيل ، صارخًا فى عصبية :

ـ أيها القاتل المجنون .

استدار إليه القاتل النحيل بحركة حادة ، وطوَّح سكينه فى عنف ، فمزَّق نصلها قميص الأستاذ (ماهر) ، وجـرح صدره ، فتناثرت الدماء فى الحجرة ، وعلى وجه (رأفت) ، الذى حاول النهوض ، لولا أن عاجله النحيل بركلة عنيفة فى فكه ، أسقطته مرة أخرى أرضًا ..

ومن بين عينيـه الزائغتين ، نصف المغلقتين ، شاهد (رأفت) عينى النحيل تبرقـان فـى جنـون ، ونصل سكينه يرتفع عاليًا ، وهو يطلق صرخة عالية وحشية ، و ....

وفجأة ، اقتحم (أسعد) المكان ، مع أحـد رجـال الشرطة ، الذى صاح ، وهو يشهر سلاحه فى وجه النحيل :

ـ ألق سكينك وإلا ....

ولكن النحيل أطلق صرخة وحشية أخرى ..

وهوى بالسكين على صدر (رأفت) ..

ومن خارج الحجـرة ، دوت صرخـة (نجوى) المذعورة الملتاعة ، وامتزجت بدوى رصاصة ، اخترقت كف النحيل ، وأطاحت بسكينه ، قبل أن ينقضّ عليه رجل الشرطة فى قوة ..

وشعر (رأفت) بالمعركـة العنيفـة ، التى تدور فى حجرة رئيس التحرير ..

ثم بدأ شعور بما حوله يتلاشى تدريجيًا ، قبل أن ينقطـع شعوره بمن حوله ..

تمامًا ..

* * *

ارتفعت ضحكة (أسعد) عالية مجلجلة ، قبل أن يربِّت على ظهر (رأفت) ، قائلاً فى مرح :

- أراهنكم على أنه أغرب حفل زفاف فى الوجود .. العريس يفرّ من عروسه ، لينقذ رئيس التحرير فى اللحظة الأخيرة .. يا له من مانشيت صحفى مثير .

هتفت (نجوى) ، معترضة فى مرح :

- خطأ .. إنه لم يفرّ منى .

تنهَّد الأستاذ (ماهر) ، وهو يتحسَّس ضمادات صدره ، قائلاً :

- ولكنه أنقذ حياتى .

ومطَّ شفتيه ، واعتدل فى مقعده ، ليتابع :

- إنه شقيق زوج عمتى ، وهو مريض نفسى ، تصورَّ أننى عدو لشقيقه ، بعد أن ربحت قضية الميراث ، وجرَّدتهما من كل ما استوليا عليه ، فقرَّر ذبحى بلا رحمة ، ولقد كاد ينجح فى هذا .

وتنهَّد مرة أخرى ، وهو يتطلَّع إلى (رأفت) مضيفًا فى امتنان :

- لولا وصولك فى الوقت المناسب .

قال (رأفت) بابتسامة هادئة :

- الفضل للَّه (سبحانه وتعالى) وحده يا رجل .

ابتسم الدكتور (ثروت) ، وأشار بسبَّابته فى ارتياح ، قائلاً :

- ألم أخبرك أن كل ما يأتينا من الخالق (عزَّ وجلَّ) ، فيه كل الخير لنا ؟

وهزَّ رأسه ، قبل أن يتابع فى حماسة :

- لقد تصوَّرنا أنك تكرار لحالة (بيتر هيركوس) الشهيرة ، وأن ما تراه مجرَّد حوادث ماضية ، التقطها عقلك بحواس متألقة ، شحذها الحادث ، أو ساعدت العملية الجراحية الجديدة ، التى أجراها لك الدكتور (صبرى) ، على وجودها ، ولكن الحقيقة أن ما رأيته كان رؤيا مستقبلية .

اعترضت الأم ، قائلة :

- الغيب لا يعلمه إلا اللَّه (سبحانه وتعالى) .

أشار الدكتور (ثروت) بسبَّابته مرة أخرى ، قائلاً :

- وهو (سبحانه) يهب من يشاء بغير حساب ، ثم إنـه هنـاك حالات دينيـة وتاريخيـة وطبيـة عديدة ، حدثت فيها الرؤى المستقبلية ؛ لخير البشر والناس .

غمغم الأب .

- ونعم بالله .

ثم أضاف فى حنان :

- المهم أن ابننا الوحيد بخير .

أومأ (ماهر) برأسه ، قائلاً :

- هذا صحيح .

ثم بدا عليه الاهتمام المهنى ، وهو يضيف :

- ولكن هل تعلم يا (رأفت) .. أى صحفى فى العالم يتمنى أن يمتلك موهبتك هذه ؛ فيها يمكنـه معرفـة الأحداث الساخنة قبل حدوثها ، بحيث يكون أوّل من يصل إلى موقعها .

ابتسمت (نجوى) ، وهى تضغط يـد (رأفت) فـى حنـان ، ولكنه لم يلتفت إليها ، وإنما شرد بصره على نحو عجيب ، وهو يغمغم فى عمق :

- هل قلت الأحداث الساخنة ؟

خفق قلب أمه فى قلق ، وتجمَّدت نظرات الأب ، وانعقد حاجبا الدكتور (ثروت) فى شدة ، فى حين هتف الأستاذ (ماهر) فى انفعال ولهفة :

- هل أتتك رؤيا جديدة ؟!

أشار (رأفت) بيده ، وهو يقول ببصره الشارد :

- نعم .. أرى أنكم جميعًا ستذهبون .

قال الدكتور (ثروت) فى حيرة قلقة :

- نذهب ؟! إلى أين ؟! ولماذا ؟!

تلاشت تلك النظرة الشاردة بغتة ، وحلَّت محلها ابتسامة خبيثة ، و (رأفت) يقول :

- إلى أى مكان .. هذا لا يعنينى ، المهم أن أجد بعض الوقت المنفرد لعروسى الجميلة ، التى لم تبدأ شهر عسلها معى بعد .

لوهلة ، لم يستوعب الجميـع الأمر ، ثم فجأة انفجروا ضاحكين ، ونهض الأستاذ (ماهر) قائلاً :

- إنه على حق يا سادة .. هيا بنا .

ثم غمز بعينه ، وهو يستطرد :

- أظن أن إجازة لمدة أسبوعين تكفى .. أليس كذلك ؟!

انتظر (رأفت) حتى انصرفوا جميعًا ، ثم احتوى عروسه بين ذراعيه ، فدفنت وجهها فى صدره ، قائلة :

- (رأفت) .. هل تشعر أنك على ما يرام الآن ؟!

غمغم ، وهو يقبّل جبينها :

- بالتأكيد .

سألته فى ارتياح :

- هل انتهت تلك الرؤى إلى الأبد ؟!

ضمّها إليه فى حنان أكثر ، وهو يقول هامسًا :

- من يدرى ؟!

قالها ، وعطرها الرقيق يطلق فى رأسه رؤيا جديدة ..

رؤيا لحياة سعيدة مديدة ..

حتى آخر العمر .

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

صفحة



الثمن فى مصر ٣٠٠ ق
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع